دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون

صدق الله العظيم

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية • الرباط • المملكة المغربية

العدد : 289
السنة

رمضان - شوال 1412 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد نزل القرآن الكريم على النبيّ العظيم
فأشرق النّور مُبدّدا للظلام، وانتصر العلم
على الجهل، وتبيّن الرُّشد من الغيّ، والهدى
من الضّلال، والعدل من البغي. وكان للدّعوة
الإسلاميّة التي أطاحت بالأوضاع المدخولة،
وقوّمت الاعوجاج والزّيغ، واستأصلت الفساد،
وقوّضت أركان الطّغيان، كان لها الدّويّ
الذي تجاوز حدود الجزيرة العربيّة إلى ما
حولها، والأثر البليغ الذي امتدّ إلى أقطار
وأقطار، وسرى في شعوب وشعوب، فانتشر
الإسلام وشاع، ونبه شأن المسلمين، وهبّت
ريحهم وطار صيتهم وذاع.

من خطاب مولانا أمير المومنين
صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده
بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم
الذي ألقاه حفظه الله بالرباط
يوم الخميس 26 رمضان 1387 هـ موافق 28 دجنبر 1967 م

خطاب العرش

الذي وجهه مولانا أمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله إلى الأمة

بمناسبة الذكرى الواحدة والثلاثين لتربع جلالته حفظه الله على عرش أسلافه المنعمين

وجه مولانـا أمير المومنين صاحـب الجلالة الملـك الحسن الثـاني نصره الله وأيـده صباح يـوم الثلاثاء 27 شعبان 1412هـ موافق 3 مارس 1992م خطابا ساميا إلى الأمة بمناسبة عيد العرش المجيد وحلول الذكرى الواحدة والثلاثين لتربع جلالته على عرش أسلافه المنعمين.

وقد كان جلالتـه ـ رعـاه الله ـ أثنـاء تـوجيهه لهذا الخطاب ـ الـذي نقـل على أمواج الإذاعة وشاشة التلفـزة ـ محفوفا بصاحـب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمـد، وصنوه السعيد صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، وصاحب السمو الأمير مولاي هشام.

وفيما يلي النص الكامل للخطاب الملكي السامي:

الحمد لله

والصلاة والسـلام على مولانـا رسـول الله وآله وصحبه،

شعبي العزيز:

نستقبل في مثل هذا اليـوم من كل سنة ذكرى عيـد العرش المجيد، نرتـاد في غمرة الأفراح والمسرات مغانيها، ونتـوقف عندها نستجلي دلالاتها، ونتملى مغازيها نستلهم منها العـزم على مواصلة البنـاء والتشييد، ونستشرف على عتبة كـل ذكرى الطمـوح إلى المزيد.

إن هذه الـذكرى التي قيض اللـه لنا ـ أنت وأنـا ـ أن احتفلنا بها طيلــة إحدى وثلاثين سنة ليست عيـدا كسائر الأعياد، ولا تخلد إقامتها مجدا واحدا بين الأمجاد، بـل هـي عيدك الـوطنـي الاسمـى، جماع المفاخـر، والرباط الذي يشـد حاضرك إلى تـاريخك القـديـم الـزاهـر، حيـث اكتمـل



لتأسيس العرش أزيد من إثني عشر قرنا، عاشتها بلادنا في ظلاله تألقا ومساهمة ومنى.

وإذ نحتفل بهذا العيد، ممجدين ما يرمز إليه من قيم سامية، ومكبرين فيه ما يمثله ويحتضنه من مثل زاهية، فإننا نقف بذلك وقفة في موعد مع التاريخ، تستحث منا الهمم على التشبث بتلكم المثل والقيم، وتهيب بنا أن تؤلف عهودنا ـ ماضيا وحاضرا ومستقبلا ـ لوحة زاهية الألوان، أو تحاكي شجرة سامقة ممتدة الغصون، يانعة الأفنان، لا انفصام بين جذورها الضاربة في القدم، ونتاجها المعطاء الموصول، ولا قطيعة بين ما حفلت به بالأمس من عطاء، وما تحفل به اليوم وما هو منتظر منها في الغد ومأمول، لننصرف بذلك فعلنا في جميع الصيغ والأزمان، وليكون حاضر المغرب خليقا بماضيه الزاهر، ومستقبله أعطى وأزهى مكاسب ومفاخر.

إن هذا العيد ـ شعبي العزيز ـ عطاء من والدي المرحوم والجيل السابق من شعبه، فرضاه وانتزعا الاعتراف به في ظروف عصيبة من عهد كفاح التحرير كان يراد فيها من المغرب أن ينسلخ عن جلده، ويجتث من جذره، فكان التعلق بالعرش

تشبثا بالكرامة والتاريخ والسيادة، وكان التحام الملك والشعب الدرع الذي تكسرت عليه المؤامرات والمكائد، وانتصرت به في النهاية إرادة الشعب والقائد.

وقد ورثنا - أنا وأنت - الاحتفاء بهذا العيد سنة حميدة، ومأثرة فريدة، ومعها ورثنا ما ترمز إليه من مفاخر وأمجاد، حققتها الأجيال السابقة من مواكب الآباء والأجداد.

وإذا كان الله قد استأثر بواسع رحمته والدنا وهو وشعبه ينعمان بموصول المحبة المتبادلة، فقد انتظمت بيني وبينك منذ أن ألقى الله إلي بمقاليد أمورك رابطة حب مكين، تناغم فيه قلبانا، وهما في الحقيقة قلب واحد، مثلما تمكنت فيه بالأمس رابطة الحب بين الشعب ووالده القائد، وفاء لعهد نحمد الله عليه أن ظل بيني وبينك موصولا، إن العهد كان مسؤولا.

شعبي العزيز:

إننا ونحن نحيي اليوم الذكرى الواحدة والثلاثين لتربعنا هذا العرش العظيم، تغمرنا نشوة العزة والفخار بما حققناه معا من منجزات طيلة العقود الثلاثة الماضية، حيث عملنا لإنجازها بإرادة مشتركة وصادق يقين، وبعزم لا يكل ولا يلين.

ولقد واجهتنا على طريقنا صعوبات ذللناها، وحاولت أن تصدنا عن مواصلة السير مكائد حطمناها، وكانت الحصيلة - الحمد لله - إيجابية. فما كان الله ليخذل من التجأ إليه، ولا ليخيب رجاء من توكل عليه.

ويعود نجاحنا في اجتياز مسيرتنا الظافرة إلى التحام الجبهة الداخلية المرصوصة من حولنا، والتي نعي أنها خشبة النجاة، فلا نفتأ نصونها ونلحمها، جامعين شتات الأمة، رائبين صدعها، دافعين عنها غوائل الشرور والأضرار، مؤمنين لها في سيرها توقي التعثرات والأخطار.

إن الجالس على عرش هذه البلاد، الذي تدعوه الأقدار، وتصطفيه لقيادة الشعب، يصبح بمقتضى تسنمه ذرى المسؤولية العظمى القائد المضطلع بشؤون الأمة وأعبائها، والأب العطوف الراعي للأسرة الكبيرة، الدافق قلبه بحب أعضائها، المترفع فوق خلافاتها ونزعاتها وهيآتها، فالأمة كلها له بجماعاتها وأفرادها مثلما هو للأمة جمعاء، لا ينبض قلبه إلا بمشاعرها وأحاسيسها.

وهذا الدور الأساسي الخطير أوكلته التقاليد المرعية على مدى العصور إلى ملك المغرب، وكرسه الدستور في مقتضيات أقرتها إرادة الأمة، التي جعلت من العرش

مؤسسة المؤسسات، ومن النظام الملكي النظام الوطني الثابت للأمة.

وتقيدا بذلك، حرصنا طيلة سنوات عهدنا على القيام بدورنا التاريخي الدستوري كاملا، فمارسنا سلطاتنا كأمير المؤمنين، وحامي الملة والدين، والحارس اليقظ لسيادة المغرب ووحدة الكيان، والقائد الموجه، والممثل الأسمى للأمة، لم نبخل في هذا السبيل بوقت أو جهد أو تضحية، مسترخصين في ذلك كل ثمن، ولو كان الأغلى، موثرين تحمل المكاره في حق المثل والقيم، فذلك عندنا أطيب وأحلى، متزودين من مدرسة كفاح والدنا أغنى الدروس، وهي المدرسة التي استرخصت في سبيل الله الأرواح والنفوس.

ولقد كانت الرهانات التي راهنا عليها عندما أنيطت بنا المسؤولية العظمى، وأنطنا بكسبها سياسة حكمنا من الحجم الكبير، كانت تبدو في كل مجال صعبة المنال، وتظهر في شكل تحديات تعز مغالبتها. لكننا جعلنا منها خياراتنا الأساسية التي لا رجعة فيها، ووطدنا العزم على التغلب عليها، مراهنين على قدرتنا وقدرة شعبنا على اقتحام كل عسير.

كانت ـ شعبي العزيز ـ هذه الرهانات تتمثل في استكمال الاستقلال، وبسط السيادة على تراب المغرب الموحد في حدوده الحقة، باسترجاع ما بقي مغتصبا من تراب مملكتنا، كما كانت تتمثل في جعل الاستقلال أساسا وغاية لتحرير الفرد وتعزيزه، بتوفير الحريات الفردية والجماعية. وكان من بين هذه الرهانات:

تأهيل شعبنا وتمتيعه بنظام الديمقراطية الاجتماعية والاقتصادية التي هي غاية الديمقراطية السياسية، إذ هذه بدون الأولى مجرد شكلية مظهرية.

كما كان من بينها تحرير الاقتصاد الوطني من التبعية، وإقامة ليبرالية سياسية عن طريق التعددية، التي أمسكنا بقصب السبق إليها داخل عالم الجنوب في وقت مبكر، عندما نص دستور سنة 1962 على أن الحزب الوحيد ممنوع، ودستور سنة 1970 ودستور سنة 1972 على أن الحزب الوحيد نظام غير مشروع.

كما راهنا على إقامة المغرب العربي الكبير وعلى تبويء بلادنا مكانتها بين الأمم، وقيامها بدورها التاريخي الرائد في العالم العربي والإسلامي.

وإذا كنا أقررنا في الدستور أن الإسلام دين الدولة، فقد كنا دائما حريصين على تطبيق تعاليم الإسلام في انفتاح وسماحة تقيدا بالإسلام الحق وعملنا على أن يظل المغرب النافذة المفتوحة على العالم، والمنعطف الواصل بين القارات، وأرض

الحرية واللقاءات في إيمان لا يتزعزع، بفوائد التعاون الدولي، والالتزام بمقتضياته.

ومن فضل الله علينا وتوفيقه، أننا نجحنا في تطبيق معظم هذه الخيارات، وفي كسب أغلبية هذه الرهانات، فالمغرب في الداخل يتميز بميزة الاستمرار وطابع الاستقرار، وله في الخارج مكانته الفضلى وسمعته المثلى.

فحمدا لله على جميع ذلك وشكرا، إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا.

شعبي العزيز:

تتلاحق السنون ولا تتشابه إلا في النادر، وهذا بخلاف القول المأثور:

«التاريخ يعيد نفسه».

نعم، إن الأحداث الدولية التي عشناها أخيرا لم تكن في غالبها سوى استمرار لما سبقها من أحداث، لكن يبقى أن كل حقبة تتميز بوقائعها في الظاهر على الأقل، وهو ما يجعلها غير معزولة تماما عما قاربها من أحداث في الماضي القريب.

إن العالم يتغير على مسمعنا وتحت أبصارنا، وأننا نشهد نشوء خريطة سياسية جديدة تزحزحت بفعلها أرضية التحالفات بعد أن كانت ثابتة صلبة أمس ولقد هيمن على عالم ما بعد الحرب طوال أزيد من أربعين عاما عملاقان، وكانا يتصارعان في حرب دائمة باردة بالنسبة لهما، لكن حقيقية وساخنة في أقطار وجهات كانت تنوب عنهما في خوضها.

وقد انهار أحد العملاقين بأفول نجم الشيوعية وسقوط النظام الشمولي الذي كان يشكل ركيزتها. وهكذا أصبح العالم يعيش ظاهرة أحادية القطب، فهل نشكو من هذا الوضع الجديد أم ننشرح لقيامه؟

هذا هو السؤال المطروح.

وفيما يخصنا، لا يمكننا إلا أن نعتبر أمرا إيجابيا التقدم الذي حققته الديمقراطية، وما ترتب على ذلك من فوز المبادىء والقيم التي تعد أساس حياة الشعوب والأمم المحبة للعدل والحرية.

لكننا مع ذلك، لا نغالط أنفسنا، علما منا أن الديمقراطية التي يهفو إليها جميع الناس، والتي تصلح لهم يجب - إذا أريد لها النجاح - أن تتوطن وتمارس بمقادير مدروسة، ليتم تكييفها مع الواقع المعيش.

فالديمقراطية - قبل أن تسجل في القوانين أو الدساتير - هي أولا مجموعة من التقاليد التي يرثها جيل عن جيل، والتي تقتضي هي نفسها نمطا معينا من الحياة، فإذا أريد زرعها عنوة، وبشكل عنيف، في مناخ يفتقد الجذور الملائمة، انتاب المجتمع خطر التفجر الذاتي. والأمثلة وفيرة في المجموعات الإنسانية أو المجتمعات التي لم تقو على هضم ما يراد

تغذيتها به في هذا المجال، فلم تنجح فيها التجربة.

نحن نعتقد أنه عندما تحل المحنة يستحب أن تسود الحكمة، وهذه الحكمة تلازم السياسة المتبعة تجاه الأشقاء والحلفاء والفرقاء. ولقد سجلنا بعظيم الارتياح التصريحات الأخيرة الصادرة عن مسؤولين جزائريين من المستوى الأعلى، المؤكدة تمسك الجزائر الشقيقة تمسكا عميقا باتحاد المغرب العربي، وعزمها على بذل قصارى الجهود لتعزيز الاتحاد وإنمائه. وهذا يدخل بالغ السرور على كل مواطن من مواطني المغرب الكبير.

إن دستور اتحاد المغرب العربي يلبي حاجة ماسة لجميع شعوبنا، التي كانت منذ توحدها في كفاح التحرير تطمح دائما إلى إقامة مجموعة متجانسة متراصة، لمواجهة التحديات، مجتمعة على كلمة سواء.

واليوم يتعين أكثر من أي وقت مضى أن لا نخيب رجاء شعوبنا، وأن نظل أوفياء لطموحاتها المشروعة، إن المصاعب كثيرة، والطريق ما يزال محفوفا بالأشواك، والمسافة طويلة، لكن إرادة الوحدة يجب أن تبقى عندنا راسخة، لنتخطى الحواجز التي تعترض سبيلنا.

إننا نتطلع بكل إخلاص وصدق إلى بناء اتحاد المغرب العربي في ظل الأخوة والتضامن والوفاء، ليكون ذلك البنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا، وليشخص بذلك ـ حقا وصدقا ـ إرادة شعوبنا في تمتين عرى التفاهم والتآخي بين مجموعته، مما يجعل منه الحصن المنيع، وما يوفر التقدم والنماء والاستقرار في كنفه للجميع.

إن المغرب بحكم موقعه الجغرافي وتاريخه العريق، الذي تخللته عبر القرون تيارات شتى، وحضارات عدة، بلد منفتح كل الانفتاح على البلاد التي تحيط به.

وقد لعب المغرب دائما دور رابطة الوصل بين مختلف القارات.

لذا علينا أن لا ننغلق أو ننكمش على نفسنا، وأن نظل نتابع باهتمام ما يجري حولنا ويحيط بنا.

ويدخل في همومنا هم عالمنا العربي، وقد أحدثت حرب الخليج في الجسم العربي شرخا عميقا، ومايزال الجرح لم يندمل كما نتمنى، ولئن كانت الخلافات تضاءلت حدتها ـ وذلك من طبيعة الأشياء ـ فإن سوء التفاهم مايزال مستحكما بين الأطراف، ونحن نأمل أن الحكمة التي طبعت دائما علاقات العرب بعضهم بعضا ستمكنهم ـ وهذا ما نتمناه من صميم القلب ـ من التغلب على سوء التفاهم،

حتى لا يبقى إلا العمل الدائب لخير الأمة العربية، وخدمة مصالحها المشتركة.

وما يجري اليوم على الساحة العربية ربما قد يساعد على توحيد الصف العربي، فالمفاوضات التي تشرف عليها الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا تتواصل بين البلاد العربية وإسرائيل، وبالإضافة إلى بلاد المواجهة المعنية مباشرة بالنزاع، هناك معظم البلاد العربية المهتمة، ومن ضمنها المغرب، ومهمة هؤلاء وأولئك ليست سهلة، فليست ثمة عصا سحرية قادرة في لحظة على طي صفحة القطيعة التي امتدت عدة عقود، لكن حقوق الوطن العربي تظل غير قابلة للتفويت، ولا يمكن بأي وجه إنكار الحق العربي، أو تجاهل ضرورة إعادة الأراضي العربية التي احتلت بالقوة وبغير الحق، وأن الإجماع الدولي ليتحقق يوما بعد يوم حول هذه القضية التي ستحل لا محالة في النهاية على الرغم من تعنت إسرائيل، ونفس الوفاق الدولي يلاحظ أيضا فيما يرجع للقضية الفلسطينية.

إن حقوق الشعب الفلسطيني لا يلغيها أي تقادم، فهي ثابتة راسخة، وبخاصة منها حقه في تقرير مصيره، وإقامة دولته على أرضه، وأن هذا لمن الأهداف الأساسية للمفاوضات الجارية الآن، وعند تحقيقه ربما نشهد نهاية النزاع المحتدم في المنطقة منذ أزيد من نصف قرن.

ولقد شاركنا في الأيام الأخيرة في اجتماع القمة لمجلس الأمن الذي عقد في نيويورك، وهو أول اجتماع من نوعه منذ إنشاء هيأة الأمم المتحدة، وقد انتهزنا الفرصة قبل كل شيء للاجتماع بالعديد من رؤساء الدول الصديقة، وتناول حديثنا معهم الحالة الدولية، وعلاقتنا الثنائية، كما أبلغنا فيها صوت العرب والمسلمين المنادي بإنصاف القضية العربية.

وكانت مداولات هذه القمة مفيدة مثمرة بناءة على عدة مستويات، وبوصفنا رئيس لجنة القدس ألححنا بصورة خاصة على الاهتمام الخاص الذي يوليه العالم الإسلامي لمصير القدس، وفي اعتقادنا أن نداءنا وجد آذانا صاغية.

وقد كانت العلاقات بين الدول وبين الأمم بطبيعة الحال في صميم محادثات القمة المذكورة، ذلك أن نظاما عالميا جديدا يتهيأ، ونحن نأمل أولا أن يحقق هذا النظام بين مختلف الدول توازنا أفضل، وندعو من جهة أخرى الدول العظمى إلى سلوك يطبعه شيء من التواضع، وغير قليل من الكرم والعطف في علاقاتها بالآخرين فبهذا يستتب السلام، وتؤمن الرفاهية والرخاء لبني الإنسان.

شعبي العزيز:

إن مشكلات العالم على أهميتها لا يسوغ أن تخفي عنا مشكلاتنا الداخلية، بل بالعكس، إن مشكلاتنا هي همنا الأول، ومحط اهتمامنا في كل لحظة.

إننا لننظر بعناية تامة لحالة جميع فئات مجتمعنا، ونسهر عليها بنفس اليقظة والعطف، وخصوصا منها الفئة المعسرة، وللأسف الشديد كثيرا ما نصطدم في هذا السبيل بصعوبات وعراقيل بالرغم مما لنا من عزم صادق، وإرادة راسخة، لتحسين مستوى شعبنا، وتمتيعه بعيش رغد كريم.

ذلك أن ما هو ملقى على عاتق الدولة من تكاليف وأعباء جسام يجعل من الصعب علينا ترجمة نوايانا كاملة إلى الواقع، وتطبيق عزيمتنا في وجهة ما نؤمله ونبتغيه، وما نظل رغم الصعوبات نطمح إلى تحقيقه وطيلة ست عشرة سنة تضاعفت أعباء الدولة، وثقل حملها بما بذلناه من جهود من كل نوع في أقاليمنا الجنوبية المسترجعة.

لقد أعلينا فوق تراب الصحراء ورمالها مدنا بكاملها، مجهزة تجهيزا عصريا، وسهر أعواننا: عسكريون ومدنيون، لا على أمن الصحراء ورفاهية رعايانا القاطنين بها فحسب، ولكن على تحقيق ثورة اقتصادية واجتماعية تعرفها صحراؤنا، وتثير دهشة زائريها.

واعتبارا منا وتقديرا لجهود هؤلاء العاملين من عسكريين ومدنيين من كل رتبة ومستوى، وهم يعيشون ظروفا استثنائية صعبة، متعناهم بنظام الراتب المزدوج، وهو حق مشروع لا يقبل الجحود، وإن كان يلقي على الدولة تكاليف وأعباء جديدة وعلى سبيل المثال، نقتصر على القول: إن تكاليف الرواتب والأجور التي تؤديها الدولة في الصحراء تبلغ مليارين وأربعمائة مليون درهم.

إن مصير كل واحد من رعايانا يهمنا وإنا لجادون في بلورة هذا الاهتمام فيما نقوم به من أعمال، وما ننهجه من سياسة، وهذا الاهتمام يمليه علينا أساس الاحترام العميق الذي نكنه لكرامة الإنسان، وهو من جهة أخرى ثمرة تعلقنا بالقيم والمبادىء، التي يقوم عليها كل مجتمع تسوده العدالة والمساواة، ويأخذ بأسباب المعاصرة.

ولقد مكننا هذا الاستعداد الفكري من رسم معالم إطار حياتنا في روية وإمعان نظر، فبمجرد اعتلائنا العرش، حرصنا على بلورة الرغبة التي عبر عنها والدنا المنعم طيب الله ثراه، فاخترنا الديمقراطية التعددية في السياسة والاقتصاد والاجتماع منهجا لنا، وسلكنا هذا المسلك في وقت

كان فيه النزوع إلى نظام الحزب الوحيد يهيمن على مجموع بلاد العالم الثالث، وطغى فيه التقليد الأعمى لاتجاه الاتحاد السوفياتي وتطبيقه حرفيا.

وهكذا زودنا البلاد بنظام كنا نرى ولا نزال أنه أصلح النظم لمجتمعنا، ولم يكن هذا النظام حين نشأته بالغا الدرجة المثلى من الكمال، ولكنه كان عملا إنسانيا يمليه الإخلاص والخلق الحميد، الذي يتحلى به من ينهض به، نظاما قابلا للتدرج نحو الكمال، ونحن نوازن دائما بين تصوره النظري وتطبيقه العملي، في نظرة توفيقية تجعله دائم التلاؤم مع مقتضيات تطور شعبنا.

ولم نتصلب قط أو نجمد في تصوراتنا ومواقفنا، بل بالعكس، كنا ومانزال نتابع ونواكب التقدم الحاصل في هذا المجال عند غيرنا، ومايزال موقفنا هو نفسه دون تغيير، علما بأن ما هو أساس ينبغي أن يبقى راسخا، ذلك أن ديمقراطيتنا هي قبل كل شيء اقتناع وسياسة وسلوك.

شعبي العزيز:

إن المبادىء الديمقراطية والمفاهيم الخلقية التي أشرنا إليها، وما لنا من إيمان بوجوب سيادة دولة الحق والقانون هي التي دعتنا إلى إيلاء حقوق الإنسان عنايتنا الفائقة، بحيث تصدرت اهتماماتنا ومشاغلنا، ونحن نعتبر فكرة حقوق الإنسان مرتبطة بدورها في المجتمع، وهذا الدور يقتضي تحقيق نوع من التوازن بين حماية حقوق الإنسان وحماية المجتمع من كل ما يهدد الإنسان في حياته وممتلكاته وأمنه الاجتماعي، ومن هذا المنظور أسسنا إلى جانبنا المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان فتقدم إلى أنظارنا بعدة اقتراحات قبلناها برمتها، اقتناعا منا بصبغتها البناءة، وتمس معظم الاقتراحات مجالات الحراسة النظرية، والاعتقال الاحتياطي، وحالة السجون من الوجهتين القانونية والإنسانية.

كما أنشأنا أيضا قنوات للاتصال والإعلام، لتنوير الرأي العام الدولي حول الموضوع، بما فيه المنظمات الرسمية والمنظمات غير الحكومة.

تكلم هي تصوراتنا، والمبادىء التي ألهمت عملنا، وذلكم هو السلوك الخلقي الذي طبع خياراتنا.

وهناك مشكل آخر يستقطب اهتمامنا، مشكل الشباب العاطل، الذي نوليه عطفنا وحدبنا، وخاصة حاملي الشهادات، ولذلك أنشأنا لمساعدتنا في هذا المجال المجلس الوطني للشباب والمستقبل، الذي استطاع في ظرف وجيز أن يترجم إلى الواقع الفلسفة التي ألهمتنا إنشاءه.

وبفضل المنهجية التي اعتمدها، والتي تقوم على تلقي المعلومات، والاستماع إلى

الأطراف المعنية، أمكنه التوصل إلى اقتراحات وأعمال ملموسة وواقعية.

وهو يشكل من الآن فصاعدا أداة للاقتراح، وجهازا دافعا في مجال التشغيل مندمجا في مختلف مؤسساتنا الوطنية.

وقد عقد مجلس الشباب والمستقبل دورتين:

أولاهما:

خصصها لقضية استيعاب الشباب حاملي الشهادات، وانبثق عنها برنامج استعجالي يستهدف تنشيط الاستثمار والتشغيل.

وقد عبرت مختلف الفرقاء من إدارة وجماعات محلية وقطاع خاص عن قبولها المساهمة في عملية توظيف الشباب، وهذه العملية مستمرة، ولحد الآن أفضت إلى نتائج مشرفة، حيث تم توظيف عدد الشبان الذين تم إحصاؤهم.

لكن القطاع الخاص مدعو لمضاعفة الجهود لإنجاح العملية، وذلك بشحذ التفكير في الموضوع، وتنشيط الجهود، وتلافي أي تباطؤ أو تأخير، للإسهام في هذا المجال الحيوي الذي يكتسي صبغة الاستعجال.

ومن جهة أخرى، تبين على ضوء عمل المجلس أن مواصفات عدد من الشبان حاملي الشهادات لا تلبي الحاجات التي عبرت عنها أهم القطاعات، وتفاديا لذلك النقص، يعمل المجلس بمساعدة الفرقاء على إنجاز برنامج وطني لتيسير إدماج حاملي الشهادات بتمكينهم من الإفادة من تكوين تكميلي.

أما الدورة الثانية لهذا المجلس فقد كانت مخصصة لتوظيف الشبان في الوسط القروي.

هذا، وأن الظرفية التي نحياها تلح على وعي الجميع بأهمية هذا المشكل، وضرورة تنفيذ برنامج للعمل لصالح العالم القروي.

ويكمن برنامج العمل هذا في مجموعة أعمال مستعجلة وملموسة، تساعد في آن واحد على تحسين البيئة الإنتاجية وعلى دعم البنية التحتية الاجتماعية التربوية الثقافية.

وهكذا نأمل في أن نتوصل تدريجيا إلى إبطال أسباب الهجرة نحو المدن والقضاء على عواملها وسيساعد التطبيق التدريجي لهذا البرنامج بعد مدة على إيجاد ما يقارب مائة وخمسين ألف وظيفة.

شعبي العزيز:

إن أمامنا مشاكل عديدة يختلف بعضها عن بعض، ونحن نجتهد في مواجهتها بحزم، وبرغبة أكيدة في تذليل الصعاب التي تعترض سبلنا، ونرى شخصيا أن المشكلات جميعا مهمة، لأنها تتحكم في مصير مجتمعنا وتوجهه.

غير أن ثمة مشاكل أكثر حدة من غيرها، لكون حلها يؤدي إلى حل طائفة من المشاكل المرتبطة بها، وفي طليعتها بالطبع مشكلة وحدتنا الترابية.

إن المغرب استعاد من الوجهتين القانونية والسياسية أقاليمه الجنوبية في إطار الشرعية التامة.

واستنادا إلى مقتضيات الرأي الاستشاري الصادر عن محكمة العدل الدولية نظمنا المسيرة الخضراء الخالدة، التي مكنتنا بطريقة سلمية من استرجاع صحرائنا، التي كان اغتصبها المد الاستعماري.

وللأسف، اعترض طمع البعض وغروره نوايانا الطيبة هذه، مع أنها لا تعكس إلا مقتضيات الحق والقانون والشرعية، وتمضي في منطق التاريخ الشاهد على حقنا المشروع.

وبعد سنوات من المماطلات والمناورات المبيتة من خصومنا، تم إقرار الاقتراح الذي تقدمنا به لتنظيم استفتاء لتقرير المصير في أقاليمنا الجنوبية، وعهد إلى هيأة الأمم المتحدة بتنفيذه، والإشراف على سلامته وتأكيد شرعيته.

ليس هذا المشكل جديدا بالنسبة إلينا، فقد كان مطروحا قبل سنتين - وكنا قررنا رغبة منا في أن تكون الأمور واضحة، وأن تتسم بالنزاهة والصدق - أن نضيف سنتين إلى أمد نيابة منتخبينا المحليين والوطنيين.

واليوم، ها نحن أمام نفس الوضعية أو نكاد نجد أنفسنا فيها، فنيابة جميع المنتخبين ستنقضي بعد دورة الربيع البرلمانية، بيد أن عناصر مشجعة تبدو في الأفق، لأن بعثة الأمم المتحدة على الصحراء حاضرة في عين المكان، وتتقدم في أعمالها.

وفيما يخصنا - سعيا منا وراء تأخير مسلسل الاستفتاء - قبلنا الخطة الأخيرة التي وضعها السيد خافيير بيريز دي كويار على ما فيها من نقص، والتي صادق عليها مجلس الأمن في قراره رقم 725. ثم إننا في معرض محادثاتنا الأخيرة مع الأمين العام الجديد لهيأة الأمم المتحدة السيد بطرس غالي ركزنا على ضرورة إقفال ملف الصحراء في أقرب وقت ممكن.

ونحن لا نشك في نتيجة الاستفتاء، فلا يمكن أن يكون بالنسبة إلينا إلا تأكيديا، لأن مغربية الصحراء لا مراء فيها، ولا مرد لها.

لكننا نريد أن تمر انتخاباتنا الداخلية في شفافية كاملة، بعيدا عن أية شبهة أو لبس، ونريد بعزم وطيد وإرادة قوية أن تجري في الوقت المحدد لها.

إنه لا مفر من أن يترتب على الصراعات الحزبية - وهي مشروعة في أي نظام

ديمقراطي تعددي - جو اجتماعي تعلو سماءه أحيانا ظلال قاتمة.

ونحن نسعى إلى أن لا تحجب عنا تلك الظلال الصورة الحقيقية، أو الأقرب إلى واقع شعبنا، ولا تبرز هذه الصورة بجلاء ووضوح إلا من خلال انتخابات حرة نزيهة تحظى بالمصداقية، ونحن نعلم أن هذه هي رغبة الجميع، وأن هذه النتيجة ستساعد كل واحد على معرفة الرتبة التي يتبوأها في الحياة الوطنية، وأن يقيس بالتالي بقياس دقيق سلوكه السياسي على ضوئها.

شعبي العزيز:

إن المغرب يقطع على طريق التقدم خطوات شاسعة، ويطرد نهوضه في جميع المجالات من سنة لأخرى، إنه يتهيأ بعزيمة صادقة، وإرادة ثابتة، ليخطو على عتبة القرن الحادي والعشرين، مسلحا بما يلزم لذلك من وسائل التقدم والنهوض.

ولقد كان ولا يزال شغلنا الشاغل، وهمنا المتواصل، أن لا تتباعد الفجوة بين التطور الذي يعيشه شعبنا والمؤسسات التي تشكل إطار السياسة التي ننهجها في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ولقد آمنا أن هذه المؤسسات مهما كانت قيمتها وفوائدها لا يمكن ولا يجوز أن تظل بعيدة عن كل تغيير، بل أكثر من ذلك استقر العزم منا دائما على أن يبقى توجهنا مسايرا للتغييرات التي يعرفها مجتمعنا، والتي يطمئن إلى خياراتها شعبنا.

ومن هذا المنطلق، قمنا أحيانا بإعادة النظر في مؤسساتنا، لجعلها ملائمة لتطور شعبنا، ولمستوى نمائه وتقدمه.

واليوم، نعتقد أن الظرف الحاضر ملائم لإنجاز ما كنا أعلنا عنه منذ أزيد من سنة بشأن إعادة النظر في مقتضيات الدستور الحالي.

لذا، سنتقدم إليك شعبي العزيز بمشروع دستور مراجع، وسنعرضه عليك بواسطة الإستفتاء لإقراره.

سيشمل المشروع بصفة أخص مراجعة مقتضيات الدستور الحالي المتعلقة بتنظيم العلاقات بين الجهاز التشريعي والجهاز التنفيذي، على أن يظل استقلال القضاء مضمونا، وخيارا لا رجعة فيه، وستتضمن المقتضيات المطروحة للاستفتاء أيضا إقامة توازن أحسن وأفضل بين سلطتي التشريع والتنفيذ، وسنحرص على توفير المزيد من العدالة للمواطنين، والمزيد من الفعالية لممارسة السلطة من لدن المسؤولين، سواء منهم من يستمد مسؤوليته من نيابة شعبية، أو من يمارس مسؤوليته على صعيد الإدارة والحكومة.

وهكذا، سيدخل المغرب في أحسن ظروف النجاح بحول الله وقوته العهد الجديد الذي ينتظره.

شعبي العزيز:

في هذه اللحظة التاريخية المجددة للقائنا بك على عتبة الذكرى، يكون لزاما علينا أن نقف وقفة اعتبار واذكار، وأن نترحم بخشوع وإكبار على روح باني المغرب الكريم، ومحرره القائد العظيم، أب الأمة المغربية، وحامل مشعل الكرامة والحرية، جلالة والدنا المنعم محمد الخامس المكرم.

إن فضله علينا وعلى هذا البلد فضل تتوالى الأجيال على النطق بشكره، وتتسابق للإشادة بقدره، ولا غرو فالشعوب سخية في طباعها، تظل وفية لمن أحسن إليها، ومتعلقة معتزة بمن خدمها ورعاها وحدب عليها، ولقد أعطى والدنا لشعبه بدون حساب، ولأمته، ومن أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة.

فاللهم نسألك أن تبوئه أطيب مثاب، وتجزل له الرحمة والثواب، وتجعله في جوار النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين من عبادك المخلصين.

ولنلتفت التفاتة العطف والرضى إلى قواتنا المسلحة الملكية، وقوات الدرك والأمن والقوات المساعدة، وخاصة من يقفون منهم لدرء غائلة العدوان على ثغر الصحراء، ساهرين على أمنه، وسلامة سكانه، رعايانا الأوفياء المتشبثين بمغربيتهم، المتمسكين بهويتهم، المرابطين في ذلك الثغر المجاهد، صادقي الولاء، وملبي النداء، ليعيش المغرب من أقصاه إلى أقصاه في وحدة كاملة لا تمتد إليها يد طامع، ولا يحول دون استمرارها التاريخي عائق أو مانع.

ونتوجه إلى الله العلي القدير، أن يمطر شآبيب الرحمة والرضوان والثواب والغفران على أرواح شهدائنا الأبرار، الذين وهبوا أنفسهم في معركة التحرير، واستشهدوا بعزم وإصرار.

اللهم إنك عليم بذات الصدور، وأنت تعلم كوامن صدري، وتعلم أني نذرت لشعبي قلبي، وأخلصت له حبي، وأني منذ أوليتني أمره سعيت - ما استطعت - لإسعاده، وأني ما أزال أطمح إلى أن أعطيه أكثر، وأوفر له من التقدم والنماء ما هو أوفر، فاجعل لي اللهم منك وليا ونصيرا، وقوني، وكن لي معينا وظهيرا.

ومتن اللهم رابطة المحبة بيني وبين شعبي، وأدم علينا نعمة تبادلها، وألهمني أن أكون على ما أوليتني وأوليته ذلك العبد الشكور لنعمة مولاه، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

صدق الله العظيم.

والسلام عليك - شعبي العزيز - ورحمة الله وبركاته.

أبحاث
و
دراسات
و
قصائد

مظاهر رائعة عن نشاط
سيدي محمد بن عبد الله
الملك العلوي، في مدة خلافته على المغرب
عسكرياً ودبلوماسياً، سياسياً وعلمياً وعمرانياً
مع كرمه الحاتمي وإسعافه المجتمعي

للأستاذ السعيد بوركبة
أستاذ محاضر بدار الحديث الحسنية بالرباط

قبل أن أشرع في تبيين مظاهر نشاط سيدي محمد بن عبد الله العلوي، أرى من المفيد أن ألقي أضواء على بيعته، وعلى تحركاته في مواجهة بعض القبائل المغربية المتمردة في ظل حكمه.

وهكذا سأتناول تحليل البحث من خلال المحاور الثلاثة الآتية:

المحور الأول : بيعة سيدي محمد بن عبد الله.

المحور الثاني : تحركاته ضد القبائل المتمردة في ظل سلطانه.

المحور الثالث : مظاهر نشاطه الرائعة.

أما عن المحور الأول، والذي يتعلق ببيعته، فيحدثنا صاحب الاستقصا(1) أنه بويع بإجماع المغاربة، سواء منهم أهل الحل والعقد من العلماء والأعيان، أو قوة الجيش آنذاك المتكون من عبيد البخاري وغيرهم، ومن مختلف القبائل البربرية، وذلك عقب وفاة والده المولى عبد الله بن المولى إسماعيل في 27 صفر 1171هـ.

وقد كان الإجماع على بيعته، نظرا لما يتصف به الرجل من حسن السياسة وكمال النجدة، وجودة الرأي، وتمام المعرفة بإدارة الأمور على وجهها، وإجرائها على مقتضى صوابها، حتى أحبته القلوب، وعلقت به الآمال.

1) هو أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ج:7، ص: 100.

وقد تحدث عن بيعته ولده المولى عبد السلام في كتابه: (بدرة السلوك) فقال: بويع لمولانا الوالد السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله، البيعة العامة الصحيحة التامة، وحضرها جماعة من أعيان العلماء، مثل قاضي الجماعة بمكناسة السيد **سعيد العميري**،(2)، وقاضي الجماعة بفاس السيد **عبد القادر أبي خريص**(3)، وشيخ الجماعة بها **السيد محمد بن قاسم جسوس**، والإمام المحقق حامل لواء المعقول والمنقول **الشيخ أبي حفص عمر الفاسي**، وابن عمه **السيد أبي مدين الفاسي**، وهو الذي تولى كتابة البيعة بيده، وإمام الشرفاء الأستاذ المولى **عبد الرحمان المنجرة**، والشيخ **العلامة السيد التاودي ابن سودة المري**، إمام المسجد الكبير بفاس الجديد **السيد عبد الله السوسي**، والإمام الحافظ **السيد أبي العلاء إدريس العراقي**، وغيرهم ممن لا يحصى كثيرة.(4)

ولما اكتملت مراسيم البيعة من طرف الوفود، أخذ في الاستعداد للنهوض إلى الغرب، فخرج من عاصمة ملكه مراكش في عسكر الحوز، ووجوهه حتى انتهى إلى مكناس، فدخل دار الملك بها، ففرق على العبيد الخيل والسلاح والمال، ثم ارتحل إلى فاس، فنزل في عساكره بالصفصافة، حيث خرج لملاقاته الودايا وأهل فاس، وبعد السلام عليه، فرق الأموال والكسي والسلاح في الودايا، وعبيد السلوقية، وأعطى الفقهاء والأشراف وطلبة العلم، وأهل المدارس والمكتبيين، والأئمة والمؤذنين والفقراء والمساكين، وأزاح علل الجميع، ثم صلى الجمعة في فاس الجديد في محفل رائع مشهود، ثم جلس للفقهاء، وسأل عنهم واحدا واحدا، حتى عرفهم.

ثم زار قبر والده، وأمر بتفريق الصدقات عنده، ثم دخل دار الحرم، فوقف على ما بها من أخواته، وعزاهن في مصاب والدهن، وطيب نفوسهن.(5)

ثم أخذ السلطان سيدي محمد بن عبد الله في تفقد أحوال ثغور المغرب البحرية، فتوجه إلى **تطاوين**، وطنجة، ومنها إلى

---

2) صوب صاحب الاستقصا اسم هذا العالم، فقال: صوابه: ابنه أبو القاسم العميري.

3) قال صاحب الدر الفاخرة، لمولاي عبد الرحمان بن زيدان، ص: 55، وبويع بفاس إثر الفراغ من دفن والده يوم الإثنين خامس وعشري صفر عام واحد وخمسين وسبعمائة وألف، موافق ثمان نونبر سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف، وهو يومئذ بمراكش، ووجهت البيعة من فاس إلى مراكش، وقرأت على منبر جامع المنصور بالقصبة هنالك، وكان الذي تولى قراءها هو قاضي العاصمة الفاسية، أبا محمد عبد القادر بن العربي بوخريص الكاملي الجعفري.

4) الاستقصا للناصري ج: 8 الصفحتان: 3، 4 / طبع دار الكتاب بالدار البيضاء 1956. تحقيق وتعليق ولدى المؤلف الأستاذين جعفر وامحمد الناصريين.

5) نفس المرجع والجزء أعلاه، ص: 5.

العرائش، حيث وجدها تكاد تخلو من الناس، اللهم إلا ما كان من 200 ريفي، فولى عليها عبد السلام بن علي وعدي، ثم أنزل بها 100 من عبيد مكناس.

بعدئذ، توجه إلى **سلا**، فعبر الوادي، ونزل **برباط الفتح**، حيث أقام به أياما، وأمر قائده **أبا الحسن عليا مرسيل**: أن يبني صقالة، أي برجا كبيرا على البحر، كما أمر قائد سلا، **عبد الحق فنيش** أن يبني مثلها بسلا على البحر مقابلتها. ثم أمر بإنشاء سفينتين: إحداهما لأهل سلا، والأخرى لأهل رباط الفتح بعد أن كانت لديهم سفينة واحدة مشتركة بينهم.(6)

وأما عن المحور الثاني، والمتعلق بتحركات سيدي محمد بن عبد الله ضد القبائل المتمردة عليه، فيحدثنا التاريخ عنه(7). أنه بعد تفقده ثغور المغرب البحرية، شرع في قمع المتمردين عليه داخل المغرب.

ومن بين هؤلاء: **قبائل الودايا، ومسفيوة، وآيت يمور وغيرها**.

أما قبيلة الودايا: فمن المعلوم، أن أول من اهتم بها، وكون منها جيشا منظما، هو السلطان المولى إسماعيل، ولكنه بعد وفاته - رحمه الله - أصبح هذا الجيش يشكل قوة خطيرة، وله من تمام الشوكة، وقوة العصبية، ما جعله يستهين بأمر الدولة، ولا يأبه بأحكام ملوكها.

وهذا ما جعل سيدي محمد بن عبد الله يعيد النظر فيه، خاصة وأنه وقعت منه اعتداءات على بعض القبائل المغربية، سواء قبل بيعته، أو بعد مبايعته.

ومن بين القبائل التي اعتدت عليها: قبيلة **آيت ادراسن**، حيث ألحت عليها بالنهب والقتل، ثم زحزحتها عن موقعها العادي.

ولما بويع لسيدي محمد بن عبد الله بالخلافة، انحازت آيت أدراسن إليه، فأنزلهم بأحواز مكناسة، وآخى بينهم وبين آيت يمور، وحالف بينهم، وأوصى عامله على مكناسة بهم، وأمر كروان بالكف عن إذايتهم، لكنهم لم يقلعوا عن غيهم، بل تمادوا على حرب آيت ادراسن، وساعدتهم في هذه الحرب قبيلة الودايا على عادتهم، مما أغضب الملك عليهم وأغاظه، فأصدر أمره لقائد العبيد، وقائد آيت يمور بالسير لمساندة آيت ادراسن على كروان والودايا.

وهكذا التحمت المعركة بين الفريقين في **وادي ويسلن**، فانتصرت آيت ادراسن على

---

6) نفس المرجع والجزء أعلاه، ص: 12.

7) نفس المرجع والجزء أعلاه، الصفحتان: 14، 15.

جيوش كروان والودايا، وقتلت منها حوالي: 500 قتيل، فجزت رؤوس أعيانهم، وعلقت على الباب الجديد من مكناسة، ورجعت الودايا إلى فاس، تحمل أذيال الهزيمة.

وبالرغم عن انهزام الودايا، فإن الملك قرر الإيقاع بها لتطاولها وتسلطها...

فخرج من **مراكش** إلى **مكناسة** من أجل تلقينها درسا قاسيا، ثم منها إلى **فاس**، حيث نزل بالصفصافة، ووجد هنالك أهل فاس والودايا متجمعين للقائه، والسلام عليه.

وبعد ذلك أمر بعمارة المشور من الغد بدار الدبيبغ، وقدم أهل فاس طعام الضيافة، فأمر السلطان بإدخاله دار الدبيبغ.

ولما صلى العصر، وقدمت بين يديه آيات الطاعة والولاء، أمر العبيد والودايا بالدخول إلى دار الدبيبغ لأكل طعام الضيافة، وكان أعد ألفا من المسخرين للقبض على أعيان الودايا، فلما دخلوا وغلقت الأبواب، وثبوا عليهم، وجردوهم من السلاح، فأحكموا وثاقهم، وألقوهم على الأرض.

ولما طعم الجيش، وسائر الناس، أمر السلطان الخيل بشن الغارات على محلة الودايا والمغافرة بلمطة، فانتسفوها وفرقوا أفرادها شذر مذر.(8)

وأما قبيلة مسفيوة: فقد قال عنها صاحب الاستقصا: إنها كانت شيعة للمولى المستضيء، ولما زحف السلطان المولى عبد الله إلى بلاد الحوز، وشرد أخاه المولى المستضيء عند مسفيوة، وأوقع بهم. أذعنوا إلى طاعته في الظاهر، وبقيت الحسائف كامنة في صدورهم، فكانت تلك الطاعة التي أظهروها له، هدنة على دخن، واستمر حالهم على ذلك إلى أيام سيدي محمد بن عبد الله، فسرى فسادهم، وقال في البستان، ـ صاحبه أبو القاسم الزياني ـ:

كان أهل مسفيوة من الطغيان والاستخفاف من الدولة على غاية لم تكن لأحد، من يوم استخلاف سيدي محمد بن عبد الله بمراكش، وهو يعالج داءهم، فما نفع فيه ترياق، إلى أن قدم مراكش قدمته هذه، فوفد عليه بها: 150 من أعيانهم، فانتهز فيهم الفرصة، وقتلهم كلهم **سوى القاضي**، ثم سرب الخيول للغارة على حلتهم، فانتسفوها، وأبلغوا في النكاية، فانخضدت بذلك شوكتهم، واستقامت طاعتهم، وصلحت أحوالهم بعد ذلك.(9)

8) نفس المرجع والجزء أعلاه، الصفحتان: 14، 15.

9) نفس المرجع والجزء أعلاه، الصفحتان: 14، 15.

وأما قبيلة آيت يمور: أهل تادلا

فقد كثر فسادها في الأرض، وتجاوزت الحدود، فقرر السلطان الإيقاع بها مثلما أوقع بالودايا ومسفيوة وغيرهما.

فأرسل إليها يستنفرها، موهما إياها بأنه سيرسلها في سرية هيأها لآيت ومالو.

فلما قدمت كتائبها، أمر بعرض العساكر كلها، ووقف رحمه الله بإزاء القصبة، ثم عرضت عليه عساكر الجند، ثم القبائل، وكلما مرت عليه قبيلة أوقفها في ناحية عينها لها، وكلما مر عليه جيش أوقفه كذلك، ولم يبق إلا آيت يمورة، فجاء وفي آخر العرض، ولما مثلوا بين يديه، أمر أهل رحاه أن يرموهم بالرصاص، فتساقط منهم عدد كبير، وكان قد أعطى أوامره للجيش بأن ينفحوهم بالرصاص كلما أرادوا الفرار من أي جهة، إلا أنهم استطاعوا أن يخلصوا من ناحية أهل دكالة، بعد أن مات منهم ما يزيد على 800 شخص، **فأمر السلطان برؤوسهم فجزت، وبعث بها إلى فاس، فعلقت على الأسوار**، وأمر الجيش بنهب حللهم، فانتسفوها، وسيقت مواشيهم وخيامهم، وأثاثهم، وفر من أفلت منهم إلى جبل آيت يسرى، ثم رحل السلطان إلى مراكش، فوفدوا عليه بعد أيام خاضعين تائبين، فعفا عنهم، ونقلهم إلى جبل سلفات من أحواز فاس فأوطنوه.(10)

وأما عن المحور الثالث: والمتعلق بمظاهر نشاط سيدي محمد بن عبد الله الرائعة في حياته، فهي:

أولا: نشاطه العسكري في مواجهة أعداء الدولة المغربية:

ويمكن إجمال هذا النشاط فيما يلي:

1 ـ إعداده الجيوش، وتوزيع بعضها في الثغور البحرية.

2 ـ بعثه تقنيين متخصصين في صنع الذخيرة لبعض الثغور المغربية.

3 ـ مواجهته العسكرية للأعداء الأجانب في بعض الثغور.

• أما عن إعداده الجيوش، فقد أوضح المؤرخون أنه كان له اعتناء بالسفن الحربية، فبلغ عددها في دولته: 20 سفينة كبرى، و30 سفينة صغرى، وهي ما تسمى بالفركطة، وبلغ رؤساء البحر عنده: 60 رئيسا وكل هذه السفن لها بحريتها الخاصة بها.

أما عدد عسكر البحرية، فتبلغ إجمالا: 16500 جندي، موزعين على الثغور، كالتالي:

1 ـ في ثغر الصويرة ما بين جيش، وطبجية، وبحرية: 2500 من العبيد.

2 ـ في ثغر آزمور: 500.

10) نفس المرجع والجزء أعلاه، ص: 27.

3 ـ في ثغر آسفي ما بين طبجية وبحرية: 400.

4 ـ في ثغر تيط: 500 من العبيد.

5 ـ في ثغر العرائش ما بين طبجية وبحرية: 1500.

6 ـ في ثغر آصيلا والساحل، ما بين طبجية وبحرية: 200.

7 ـ في ثغر المهدية: 2500 من العبيد.

8 ـ في ثغر طنجة: 3600 من أهل الريف.

9 ـ في ثغر تطاوين: ما بين طبجية وبحرية، وجيش: 800.

10 ـ في ثغر العدوتين: سلا والرباط، ما بين طبجية وبحرية 2000.

11 ـ في ثغر آنفا: 2000 من العبيد.(11)

كما بين الناصري أيضا في الاستقصا: أن عسكره يبلغ: 1000 من المشارقة، و3000 من المغاربة و2000 من الطبجية، وعسكره من العبيد يبلغ: 15000، ومن الأحرار 7000، بينما عسكر القبائل الذي يغزو مع الجند، يبلغ من الحوز: 8000، ومن الغرب: 7000.

فيكون المجموع إذن، هو: 43000.(12)

• وأما بعثه تقنيين في صنع الذخيرة والمراكب... لبعض الثغور المغربية، فيحدثنا عنه الناصري فيقول:(13)

وفي هذه السنة أعني سنة: 1180هـ، بعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله خديمه الرئيس عبد الكريم راغون التطاوني، باشدورا إلى السلطان مصطفى العثماني، وأصحبه هدية نفيسة مكافأة على هديته التي كان أرسلها مع السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي، والسيد الطاهر بناني الرباطي.

ثم لما دخلت سنة 1181هـ قدم الحاج عبد الكريم المذكور من عند السلطان المذكور، ومعه هدية عظيمة أعظم من الأولى، وهي: مركب موسوق **بالمدافع، والمهاريس النحاسية وإقامتها، وإقامة المراكب القرصانية من صوار ومخاطيف، وقلوع، وقمن وحبال، وبراميل**، وغير ذلك من آلات البحر، وفيها: **30 من مهرة المعلمين الذين لهم المعرفة بإفراغ المدافع والمهراس إلى الغاية، فنزلوا بمرسى العرائش**.

وعن هؤلاء المعلمين المتخصصين، في الذخيرة والعتاد الحربي يحدثنا أبو القاسم الزياني في كتابه: (البستان) فيقول:

«وكنت يومئذ واليا بها، فورد أمر السلطان بتوجيه المعلمين إلى فاس، يقيمون

---

11) نفس المرجع والجزء أعلاه، ص: 61.

12) نفس المرجع والجزء أعلاه، ص: 70.

13) نفس المرجع والجزء أعلاه، ص: 31.

بها حتى يقدم السلطان من مراكش إلى مكناسة، فيجتمعون به هنالك، ولما وصل السلطان إلى مكناسة، وحضروا عنده، فاوضهم في الخدمة، وأراد أن يحيي آثار الصنعة التي كانت بسلا، تصنع بها المراكب الجهادية على عهد الموحدين وبني مرين، فقالوا: نحتاج أن تبني لنا دارا على هيئة كذا، ومن نعتها كذا وكذا، ورسموا له شكلا في قرطاس، فرأى أن أمرها لا يتم في عشر سنين، ولا أكثر، ولا يكفي في بنائها مال، فأعرض عن ذلك، **وبعث معلمي البنب** (القنابل) **إلى تطاوين، فكان أحدهم يفرغ البنبة من قنطارين، وبعث معلمي المراكب إلى سلا، فأنشأوا فيها ثلاث شكظريات، وبعث معلم الرمي إلى رباط الفتح، فكان يعلم بها الطبجية من أهل سلا**، وتخرج على يديه نجباء، ومن ثم توارث أهل العدوتين هذه الصناعة مدة إلى أن لم يبق بها اليوم إلا الإسم، ورد أصحاب المدافع والمهاريس إلى فاس، فأقاموا بها إلى أن توفوا هنالك رحمهم الله».(14).

• وأما مواجهته العسكرية للأجانب: فتتجلى فيما قام به من جهاد في كل **من العرائش، والجديدة** ومحاصرته **مليلية**.

1 ـ جهاده في العرائش :

من المعلوم، أن العرائش تعرضت لهجوم غادر ـ بحرا ـ من طرف الفرنسيين، وذلك بواسطة 15 قاربا حربيا، شحنت بألف عسكري فرنسي، وكان ذلك الهجوم في يوم الخميس 2 محرم، وقيل: 9 منه ليلة عاشوراء سنة 1179هـ وتصاعدوا مع مجرى الوادي إلى مراكب السلطان التي كانت ترسي هناك... فحرقوا سفينة حربية، كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد غنمها منهم، وكسروا أخرى بالمعاول، فتصدى لهم بنو جرفط وأهل الساحل، فردوهم على أعقابهم خاسرين. وحالة رجوعهم إلى مراكبهم، وجدوا لهم بالمرصاد عرب الغرب مع قائدهم: **حبيب المالكي**، فأبادوهم، وغنموا منهم: 11 قاربا، ونجا منها: 4 وعند انتهاء المعركة، **أمر السلطان بتوجيه 80 رأسا من القتلى إلى سلا**، وتعليقها بالصقالة القريبة من سيدي ابن عاشر.. ثم وقع صلح مع الفرنسيين، وتضمن20 شرطا.(15)

2 ـ جهاده في الجديدة :

ولم يكن جهاده في الجديدة مع الفرنسيين، وإنما كان مع البرتغاليين، وقد

14) نفس المرجع والجزء أعلاه، ص: 32.

15) انظر نص وثيقة الصلح بين سيدي محمد بن عبد الله وبين لويس الخامس عشر في كتاب: (إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس)، تأليف مولاي عبد الرحمان بن زيدان، ج: 3، ص: 266، المطبعة الوطنية ـ سنة 1349هـ/1931م.

سبق للبرتغاليين أن احتلوا الجديدة منذ مدة، فقرر عزم السلطان على غزوها، فابتدأها بالحصار برا وبحرا، وكانت الجيوش المغربية المحاصرة من قبائل **مراكش، والحوز والسوس**، وغيرها، وكان هذا في فاتح رمضان 1182هـ/4 مارس 1768م، حيث حفروا الأرض من جميع جهاتها، ونصبوا عليها 35 مدفعا ما بين كبير وصغير، فرموها بقذائف وقنابل كثيرة في عدة أيام، إذ سقط منها داخلها أكثر من 2000 قذيفة، فتهدم كثير من أبنيتها، وقتل كثير من أهلها.

ولما طال عليهم الحصار، كتبوا إلى طاغيتهم في هذا الشأن، فأشار عليهم بالخروج إذا عجزوا عن المدافعة، وبعد امتناع عامتهم من الخروج منها، استطاع أحد القسيسين أن يتوسط بينهم وبين كبيرهم، فيسهل عليهم الخروج، فإذا بكبيرهم يبعث إلى السلطان يطلب منه الكف عن القتال، ويؤجلهم 3 أيام ليدفعوا له البلد، فلبى السلطان مطلبهم، شريطة أن يخرجوا منها وليس لهم إلا ثيابهم التي على ظهورهم.

ولما تأكد عامتهم من شرط السلطان، أخرجوا الأثاث والفراش، وعرقبوا الخيل، وقتلوا الماشية، وكسروا الأواني، وأتلفوا العدة، وأفسدوا أكثر من **100 مدفع، ثم دفنوا (مينات) البارود في حوماتها، كل مينا فيها أكثر من 40 برميلا مشحونا بالبارود**، وتركوا رجلا واحدا حدادا اسمه: بطروس، أوقدها عند دخول المسلمين. وهكذا وقع انفجار مهول ذهب ضحيته: 5000 مقاتل مغربي، وتهدم السور الجنوبي من المدينة.

3ـ محاصرته مليلية :

ثم توجه الجيش المغربي لغزو مليلية أواخر سنة 1184هـ، وكانت محتلة من طرف الإسبان، فأحاط بها، ونصب عليها المدافع، والمهاريس، وشرع في رميها بالقذائف أول يوم من المحرم سنة 1185هـ، واستمر على ذلك أياما. فكتب إليه طاغية الإسبان يعاتبه على حصارها، ويذكره الهدنة بينهما، بناء على الصلح الذي وقع بينه وبينهم، ويقول له: هذا خط صاحبك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لازال تحت يدي. فأجابه السلطان ـ رحمه الله ـ بقوله:

«إنما عقدت معك الهدنة في البحر، فأما المدن التي في إيالتنا فلا مهادنة فيها، ولو كانت فيها مهادنة، لخرجتم إلينا، ودخلنا إليكم، فكيف ادعاء المهادنة مع هذه المداهنة»؟

فبعث إليه الطاغية عقد الصلح بعينه، فإذا هو عام في البر والبحر، فكف عن حربها، وأفرج عنها، **وترك هناك جميع آلات الحرب من مدافع، ومهاريس**

وكراريص، وبنب، وكور، وبارود، وشرط على الطاغية حملها في البحر، وردها إلى الثغور التي جلبت منها، لما في جرها في البر من المشقة على المسلمين، فبعث مراكبه، فحملت بعضها إلى تطاوين، وبعضها إلى الصويرة، وذلك محلها الذي سيقت منه.

وكان ذلك سببا في تأخيره الغزال عن كتابته، وبقي عاطلا إلى أن كف بصره، ومات رحمه الله.(16)

ثانيا ـ نشاطه الدبلوماسي :

وأما عن نشاطه الدبلوماسي، فيتجلى في بعثه سفراء له خارج المغرب.. ومن بين هؤلاء السفراء الذين بعثهم خارجه، ما يأتي:

1 ـ الرئيس الحاج التهامي مدور الرباطي :

فقد بعثه في سنة 1177هـ سفيرا إلى السويد، ليأتيه بمتطلبات المراكب الحربية من الذخيرة، وكان بعثه بعد اجتيازه رباط الفتح لما كان راجعا إلى مراكش من مكناسة عقب القضاء على الثائر أحمد الخضر بصحراء فكيك.(17)

2 ـ الرئيس أبو عبد الله محمد العربي المستيري الرباطي :

وقد بعثه سفيرا إلى **إنجلترا** في نفس السنة المذكورة أعلاه، ليصلح بها قرصانه، ويستصحب معه ذخيرة مركبين، ومدافع نحاسية وغير ذلك.(18)

3 ـ أبو العباس أحمد الغزال :

وسبب بعثه سفيرا إلى إسبانيا: أن سيدي محمد بن عبد الله قد توصل ببعض الرسائل من أسارى المسلمين في إسبانيا، يصفون فيها أحوالهم، ويطلبون منه فك أسرهم.

وقد وقع إطلاق الأسرى من السلطان موقعا حسنا، فأطلق هذا سراحهم، وبعث بهم إليه، ووعده أن يلحق بهم غيرهم.

16) انظر الجزء (8) من الاستقصا الصفحتان: 40، 41، وقد صرح الناصري في نفس المرجع السابق أعلاه: أنه سمع فقهاء العصر، وقد جرت المذاكرة في كيفية هذا الصلح فقال: إن الغزال ـ رحمه الله ـ لما أعطى خط يده بالصلح والمهادنة، كتب في الصك ما صورته: «إن المهادنة بيننا وبينكم بحرا لابرا، فلما حاز النصارى خط يده كشطوا (لام ألف) وجعلوا مكانها «واوا» فصار الكلام: بحرا وبرا.
وإن السلطان ـ رحمه الله ـ إنما أخره لاختصار الكلام، وإجحافه به حتى سهل على النصارى تحريفه، وكان من حقه أن يأتي بعبارة مطولة حتى لا يمكن تحريفها فيقول مثلا: والمهادنة بيننا وبينكم إنما هي في البحر، وأما البر فلا مهادنة بيننا وبينكم فيه.

17) انظر الجزء الثامن من الاستقصا، ص: 19.

18) نفس المرجع والجزء والصفحة.

وقد وقع إطلاق الأسرى من السلطان موقعا حسنا، فأطلق هو نفسه أسرى إسبانيا وغيرها كانوا عنده تحت الأسر، وبعث معهم هدية فيها كثير من الأسود على يد قائد سبتة.

فلما توصل بها ملك الإسبان تلقاها بسرور، فهيأ هدية قيمة، بعثها مع كبراء القسيسين والضباط، مصحوبة برسالة تتضمن محبته للسلطان، واعترافه بفضله ومنته. كما تتضمن بعث أحد أرباب دولته وكبرائها لتتشرف أرضه بمقدمه.

فبعث إليه من أجل ذلك: خاليه: **أبا يعلى عمارة بن موسى، وأبا عبد الله محمد بن ناصر**، وكلاهما من الودايا، ومعهما كاتبه أبو العباس أحمد الغزال. فلما وصلوا إلى جبل طارق، كتب الغزال إلى بعض وزراء السلطان يقول له:

إني أريد منك أن تُعَرِّف أمير المؤمنين أن هذين الرجلين لا معرفة لهما بقوانين النصارى، وإني خفت عاقبة الأمر فيما ينشأ عن رأيهما، فلا يواخذني أمير المؤمنين بشيء من ذلك إن كان.

فأخبر الوزير السلطان، فقال:

صدق، وقد ندمت على تقديمهما عليه، وما راعيت إلا منزلتهما، والآن فاكتب إلى الطاغية، وقل له: إني بعثت إليك بكاتبي أحمد الغزال باشادورا، وابعث بالكتاب إلى الغزال، فإذا بلغه، فليستمسك به، وليحز الكتاب الأول الذي عندهما، ويلي الأمر دونهما. فلما بلغه كتاب السلطان، امتثل وقضى الغرض على الوجه المطلوب.(19)

4 ـ الرئيس أبو الحسن علي مارسيل الرباطي :

فقد بعثه السلطان في سنة 1179هـ إلى **فرنسا**، لتقرير الصلح معهم، وقبض مال أسارى العرائش، وشراء الذخيرة منها، فبذلوا له المال والذخيرة معا طائعين.

5 ـ الفقيه الطاهر بن عبد السلام السلاوي، والفقيه الطاهر بناني الرباطي :

فقد بعثهما في سنة 1179هـ كسفيرين له إلى **الخليفة التركي مصطفى العثماني**، وأصحبهما هدية نفيسة، فيها خيل عتاق بسروج مثقلة بالذهب، مرصعة بالجوهر والياقوت، ونفيس الأحجار، وفيها أسياف محلاة بالذهب، ومرصعة بالياقوت المختلف الألوان، وفيها حلي من عمل المغرب، فقبل ذلك السلطان العثماني وابتهج به، ثم **كافأ عليه بمركب موسوق من آلة الحرب: مدافع ومهاريس،**

19) انظر الجزء (8) من الاستقصا ص: 24.

وبـارود، وذخـيرة كثـيرة للـمـراكـب القرصانية من كل ما تحتاج إليه.(20)

6 ـ أبو القاسم الزياني :

ما أن دخلـت سنة 1200هـ حتى بعث السلطـان سيدي محمـد بن عبـد الله أبـا القاسم الـزياني سفيرا **إلى السلطان عبد الحميد العثماني** بهديـة عظيـمة، من جملتها أحمال من سبائك الـذهب الخالص مثل بارات الحديد.

وقـد أقـام الزيـاني بـالقسطنطينيـة 3 أشهر و10 أيام. ولما قضى الغـرض منها، انقلب راجعا منها إلى السلطان، وبعث معه السلطان عبد الحميد أحد خدامه بهدية إلى السلطان، ولما رجع، نوه سيـدي محمد بن عبـد اللـه بسفيره الـزيـاني أمـام محضر الـرئيـس الطـاهر بـن عبـد الحق فنيـش السلاوي(21).

تلكم كانت نظرة جد موجزة عن نشاط سيدي محمد بن عبد الله الدبلوماسي.

ثالثا ـ نشاطه ودهاؤه السياسي :

وأمـا عـن نشاطـه ودهـائه السيـاسي، فيكمن الـوقوف على كثير من مظـاهره في حياتـه رحمه الله، إلا أننـي سأقتصر على ذكر نموذج واحد فقط، وذلك من خلال ما عامل به العبيـد، الذيـن أظهـروا شيـئا كثيـرا مـن الفسـاد والطغـيـان في خلافـته.

فقـد كتـب إلى عبيد طنجـة والعـرائش، يقول لهم: «إني قد رضيـت عنكم، وبررت قسمي في نقلكـم من مكنـاسة إلى الثغـور، والآن، إذا وصلتكـم الإبـل والبغـال التـي أبعثها إليكم، فلتحمل أهـل طنجة بأولادهم ومتاعهم وليقدمـوا إلى دار عربي من بلاد سفيـان، فلينـزلـوا بها، ثـم يبعثـوا الإبـل والبغـال إلى أهـل العـرائش، ليتحملـوا بأولادهـم ومتاعهـم إلى دار عربي كـذلك، وإذا اجتمعتم أنتـم وهم بها، فـإني أبعث إليكم بغـالي تتحملون عليهـا إلى مكناسـة كلكـم. فلما وصـل إليهم كتـاب السلطـان بذلـك، طاروا فـرحا، وأحبـوا الرجـوع إلى مكناسـة.

ولما وردت عليهم الإبل والبغال، ارتحلوا مـن طنجـة، وفي أثناء ذلـك، بعـث إليهـم السلطان، **قـائدهم سعيـد بن العيـاشي**، الذي خلعوه أيـام الفتنة، وأوصاه أن يقيم بدار عـربي حتى يقـدم عليه عبيـد طنجة والعرائش.

فانتهى إليها، ووافـاه بها عبيد طنجـة، فنزلوا عليه بقضهم وقضيضهم، ووصلت الإبـل والبغال إلى العـرائش، فجاؤوا حتـى

20) نفس المرجع أعلاه، ص: 25.

21) انظر الجزء الثامن من الاستقصا ص: 6.

نـزلـوا مـع إخـوانـهـم كـمـا رسـم السلطـان.

ثم إن السلطـان ـ رحمه اللـه ـ نهض من رباط الفتح حتى وافى مشرع مسيعيدة من وادي سبو، ثم انتقل إلى سوق الأربعاء من بلاد سفيان، ثم تقدم إلى قبائل الغرب، وبنـي حسـن أن يسيـروا إلى العبـيـد، ويعسكـروا عليهـم مـن جيمـع الجهـات، فامتـثـلـوا، ولما استداروا حولهم، وأحاطوا بهم إحـاطة بيـاض العين بسـوادها، قـدم السلطان، ودعـا رؤسـاء القبـائل، فحضروا عنده فقال لهم:

«إني قد أعطيتكم هؤلاء العبيد بأولادهم وخـيـلهـم وسـلاحهـم، وكـل مالـهـم، فاقتسموهـم الآن، وكل واحد منكم، يـأخذ عبدا وأمة وأولادها.

فالعبد يحرث الأرض، والأمة تطحن، والولد يرعى الماشيـة، فخذوهم وتقلدوا سـلاحهـم، واركبـوا خيـولهم، والبسـوا كسـاهم، بـارك الله لكـم فيهـم، فأنتـم عسكري وجندي دونهم.

فلما سمعت قبائل الغرب، وبني حسن هذا الكلام من السلطـان، وثبوا على العبيد من غير أن تكون منهم وقفة، واقتسموهم، وصيروهم عبرة لمن اعتبر.

وهكذا نفى **عبيد الربـاط إلى مراكش**، بعد أن عـزل عنهم قوادهـم، وولى مكانهم غيرهـم، واستمـر عبيد طنجـة والعـرائش مـوزعين في القبـائل أربع سنين، ثـم عفـا عنهم، واستردهم من القبـائل إلى الجندية، وأركبهم وكسـاهم وسلحهم، لكنه ميـزهم وجعلهـم قبائل في الخلـط، **وطليق منهم أنـزلهم بقصر كتـامة وسفيـان، وأهـل مالك** أنـزلهم **بتامدرت** مـن أعمال فـاس، وقاموا هنالك عدة سنين يوجهون حصتهم في البعوث، ويعسكرون مـع السلطان متى احتـاج إليهـم، ثـم جمعهـم بعـد ذلـك ونـقـلـهـم إلى **مـراكش**، وأقبـل عليـهـم بالعطاء إلى أن عـادوا أحسـن مـما كانـوا حالا.

ثم بـدا له فيهـم، فبعث **عبيد السوس إلى تارودانت**، وعبيـد **حاحة والشبانات إلى الصويرة**، وعبيـد **السراغنة وتـادلا ودمنات إلى تيط الفطر، وعبيـد الشاوية إلى آنفا**، وعبيد **دكالة إلى آزمور**، وعبيد **زعير والـدغماء إلى المنصـوريـة**، وعبيـد **بنـي حسـن إلى المهـديـة**، وأبقـى معـه **بمـراكـش عبيـد سفيـان وبنـي مـالـك** والخلط، وطليـق والمسخرين مـن أصحاب العباس.(22)

وهذا نـرى كم كان لسيدي محمـد بن عبـد اللـه مـن حـزم ودهـاء في معـالجة المشاكـل المستعصية، وتصريـف الأمور في المواقف الحرجة.

22) نفس المرجع والجزء، الصفحات: 47، 48، 49.

رابعا: نشاطه العلمي :

وأما عن نشاطه العلمي، فيحكى عنه أنه قبل مبايعته بالخلافة كان له شغف بالتاريخ وأخبار الناس، وأيام العرب، ووقائعها، وقد كان يحفظ من كلام العرب وشعراء الجاهلية والإسلام، ما هو مبثوث في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.

وبعد مبايعته: أخذ يهتم أكثر بكتب الحديث، وبالبحث عن غريبها، وجلبها من أماكنها، كما كان يجالس العلماء ويتذاكر معهم في أوقات محددة لذلك.

وقد كان يرى أن اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في الفقه، وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة يضيع أعمارهم، مما جعله ينهاهم عنها، ويبالغ في التشنيع على المتمسكين بها، حتى كادوا يتركون قراءتها. كما كان يحضهم على كتاب: (الرسالة والتهذيب)، وأمثالهما، حتى وضع لهم كتابا مبسوطا أعانه عليه جماعة من علماء مجلسه.

ومن بين علماء مجلسه:

1 ـ أبو عبد الله محمد بن الإمام سيدي عبد الله الغربي الرباطي.

2 ـ أبو عبد الله سيدي محمد المير السلاوي.

3 ـ أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدي.

4 ـ أبو زيد عبد الرحمان المدعو: بأبي خريص.

ومما تجدر ملاحظته: أن سيدي محمد بن عبد الله جلب من بلاد المشرق كتبا نفيسة من كتب الحديث لم تكن في المغرب، كمسند الإمام أحمد بن حنبل، ومسند الإمام أبي حنيفة، وغيرهما.

وقد ألف عدة كتب في الحديث: أعانه عليها الفقهاء السابق ذكرهم... من بين هذه الكتب: (**كتاب مساند الأئمة الأربعة**)، وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم، التزم فيه أن يخرج من الأحاديث ما اتفق على روايته الأئمة الأربعة، أو ثلاثة منهم، أو اثنان. فإذا انفرد بالحديث إمام واحد أو رواه غيرهم، لم يخرجه. وهذا لم يسبقه إليه أحد.

وكثيرا ما كان يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع فقهائها، ومن انضاف إليهم من علماء فاس وغيرهم للمذاكرة في الحديث الشريف وتفهمه.(23)

وقد أراد ذات يوم أن ينظم بيت مال المسلمين، فعقد جلسة بمكناسة سنة 1173هـ مع العلماء الذين وفدوا عليه من فاس وغيرها، وكان مما حدثهم به في أول جلسة قوله:

---

23) نفس الجزء والمرجع، ص: 66.

«إني أسير إن شاء اللـه بسيرة الخلفاء الراشدين»، ثم تطرق إلى موضوع الجلسة، وهو الزكاة، **والموارد الأخرى لبيت المال، فقـال لهم: هـل يجوز فـرض مـال على الرعية لإعانة الجيش غير الزكاة إن لم يكف ما في بيت المال**؟.

فكانـت مذاكـرات ومناقشــات، بعضها فيه تـأييد للفكـرة التي تضمنهـا السؤال، وبعضها فيه تحفظ، فقال لهم: إذا رجعتم إلى فاس، فليكتب كل واحـد منكم ما عنده مـن النصوص حـول هـذا الموضوع، ثـم اجتمعـوا إلى أن تكتبـــوهـــا لي في دفتر، ووجهوه إلي.

وقد كتبوا ما عنـدهم من النصوص في دفتر خاص اشترك في تحريره كل من:

1 ـ العــلامة التــاودي ابـن ســـودة: فحرر ما يتعلق ببيت المال، وإن لم يكن به المال، أو نقص عن عطـايا الجند، فإعـانته على المسلمين، واعتمد في ذلك على مـا أجاب بـه علماء الأندلس والمغـرب يـوسف بـن تاشفين حين سـألهم عن قضيـة مثل هذه، وكذلك ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب في مثلها أيضـا.

2 ـ العلامة أبـو حفـص الفاسي: وقد حرر هذا ما يتعلق بالزكاة ومصاريفها.

3 ـ كما وضــع العالمان: **عبد الرحمان المنجرة، وجسوس:** تـأليفا في الموضــوع أسمياه: (الفتح المبين، في بيان الزكاة وبيت مال المسلمين)، وقـد اعتمد سيـدي محمد بن عبد الله على ذلك، وبنى عليه ما فرضه من حـق الموازين أو ضريبـة الموازين، على مدن المغرب وأسواقه.(24)

ومما عـرف عن سيدي محمد بـن عبد اللـه: أنـه **كـان ينهـى عن قـراءة كتـب التوحيد المؤسسة على القـواعد الكلامية** المحـررة على مذهـب الأشعـرية، كما كـان يحض النــاس على مـذهـــب السلـف مـن الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل.

وكـان يقول عـن نفسـه: «إنــه مالكــي مذهبا، حنبلي اعتقادا».(25)

خامسا : نشاطه العمراني :

وأما عــن نشاطـه العمراني، فقـد أنشأ عدة مساجد ومدارس، كما جدد كثيرا مما كـان مبنيا منهـا، ممـا يـدل على حرصـه الشديد على صيانة المؤسسات الدينية.

أضف إلى ذلك أنه جدد بناء 13 ضريحا لرجال المغـرب الصالحين المصلحين، وهـي كما تعرض لها أبو العباس أحمد الناصري في الاستقصا(26) حيث قال:

24) انظر كتاب حياة سيدي محمد بن عبد الله: للأستاذ لحسن العبادي، الصفحتان: 43، 44.

25) انظر نفس المرجع والجزء من الاستقصا ص: 68.

26) نفس المرجع والجزء أعلاه، ص: 20، 69.

«فمن ذلك **بمراكش**: تجديد ضريح **الشيخ أبي العباس السبتي**، ومسجده ومدرسته، وضريح **الشيخ التباع** ومسجده، وضريح **الشيخ الجزولي** ومسجده، وضريح **الشيخ الغزواني** ومسجده، وضريح **الشيخ ابن صالح** ومسجده، وضريح **المولى علي الشريف** ومسجده الأعظم، وضريح الشيخ **ميمون الصحراوي** ومسجده، ومسجد **الملوك بريمة** ومدرسته، وتجديد **جامع المنصور**، والمسجد الأعظم بباب **دكالة**، والمسجد الأعظم بباب هيلانة، والمسجد الأعظم **بالرحبة**، ومساجد **القصبة**، ومدارسها الست، ومسجد **زاوية الشرادي** ومسجد **رباط شاكر**، ومدينة **الصويرة**، بمساجدها ومدارسها وصقائلها وأبراجها، وكل ما فيها، ومسجد **آسفي** ومدرسته، ومسجد مدينة **تيط**، ومدينة **آنفا**، ومسجدها وحمامها وصقائلها، وأبراجها، ومدينة **فضالة** ومسجدها ومدرستها، **والمنصورية** ومسجدها، وجامع السنة **برباط الفتح**، ومساجد **أجدال السنة**، وأبراجه، والصقالتين الكبيرتين **بسلا، وبرباط الفتح**، ومسجد **العرائش**، ومدرسته، وصقائلها، وأبراجها وسوقها، وصقائل **طنجة وأبراجها**، والمسجد الأزهر ومدرسته باصطبل **مكناسة**، ومسجد **البردعيين** بها، وضريح **ابن عيسى**، وضريح الشيخ **أبي عثمان سعيد** ومسجده، ومدرسة الصهريج، ومدرسة **الدار البيضاء**، ومسجد **بريمة** ومدرسته، ومسجد **هدراش**، ومسجد باب **مراح**، **وثلاثة أقواس بقنطرة وادي سبو** خارج **فاس**، وضريح **الشيخ علي بن حرزهم**، وضريح **الشيخ دراس بن إسماعيل**، وضريح **أبي عبد الله التاودي**، ومدرسة **باب الجيسة**(27). **ومسجد تازا** ومدرسته، وضريح **المولى علي بن الشريف بسجلماسة**.

سادسا : كرمه الحاتمي :

وأما عن كرمه الحاتمي، فشيء يجل عن الوصف، فقد كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويمكن لي أن أورد ثلاثة نماذج فقط، للدلالة على كرمه الحاتمي فيما يلي:

1 - إنه أنقذ رعيته من مخالب موت محقق، عندما حلت مجاعة كبرى بالمغرب، واستمرت سبعة أعوام. فقد أورد الناصري في معرض كلامه على فساد العبيد في المغرب، وجورهم، وسوء صنيعهم،

27) نفس المرجع والجزء والصفحة أعلاه، وانظر أيضا ما ساقه الشيخ محمد المكي الناصري في هذا المجال في كتابه: (الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية) ص: 5.

وتأديب سيدي محمد بن عبد الله إياهم، حيث قال:

«وكان قيام هؤلاء العبيد سببا لافتراق الكلمة، وانحلال نظام الملك بالمغرب، وسرى فسادهم في القبائل كلها عربا وبربرا، وكثر الهرج، وانحبس المطر، ووقع القحط، وعظمت المجاعة، واستمر الحال على ذلك نحوا من سبع سنين، من سنة 90 إلى سنة 1196هـ، **فكانت هذه المدة كلها مجاعة** إلى أن أكل **الناس فيها الميتة، والخنزير، والآدمي، وفني أكثرهم جوعا، والسلطان في ذلك يكابد المشاق العظام، ويصير على الجنود الأموال الثقال، راتبا بعد راتب، وعطاء بعد عطاء، إلى أن خلصوا من المجاعة، وصلحت أحوال الجماعة، وكان رحمه الله، قد رتب الخبز في كل مصر، يفرق على ضعفائه في كل حومة، وأسلف القبائل الأموال الطائلة، يقسمونها على ضعفائهم إلى أن يؤدوها زمان الخصب والرخاء.**

ولما عاش الناس وهموا بأدائها، سامحهم بها، وقال: «**ما أعطيتها بنية الاسترجاع، وإنما ذكرت السلف، ليلا يستبد بها الأشياخ والأعيان إذا سمعوا أنها هبة**».

فرحم الله تلك الهمة الشريفة، ما كان أعلاها وأعظمها، وأرأفها وأرحمها..!

وأسقط ـ رحمه الله ـ في تلك المدن جميع الوظائف والمغارم عن قبائل المغرب، إلى أن عاشوا وتمولوا، وكان يعطي التجار الأموال، ليجلبوا الأقوات من بر النصارى، فإذا وصلت أمرهم أن يبيعوها بثمنها الذي اشتريت به، رفقا بالمسلمين، وشفقة على الضعفاء والمساكين.

2 ـ إنه فك 42 ألف أسير من أسرى الحرب المحتجزين عند الأعداء، وكان فكه هذه المجموعة الهائلة من المغاربة وغيرهم في سنة 1200هـ (28)

وأنه بتأمل هذا النص، نتبين من خلاله: عظمة سيدي محمد بن عبد الله العلوي، ومكانته الكبرى في الدولة المغربية، وما قام به من أدوار جليلة، لدعمها، وتوطيد أسسها.

3 ـ إنه قام بعدة إسعافات في الحياة المجتمعية، تتمثل في إسداء الخير والنفع العام لكثير من المحتاجين، ومن البؤساء المنكوبين، سواء كانوا داخل المغرب أم خارجه، وقيامه بهذه الإسعافات إن دلت على شيء، فإنما تدل على ما للرجل من قلب رؤوف رحيم، ومن نفس طيبة محبة للخير، متشبعة بتعاليم القرآن، وبتوجيهات الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين.

---

28) انظر نفس المرجع والجزء، ص: 70.

ومن بين أوقافه :

أ ـ وقفه جنان بن الحداد خارج باب الخميس بمراكش على 102 من الطلبة العمي، ليستعينوا بريع هذا الجنان في حياتهم المعاشية، وقد كان الإشهاد على هذا الوقف أواسط جمادى الثانية عام 119هـ.(29)

ب ـ وقفه 2000 دينار من الذهب و6000 ريال من الفضة على الحرمين الشريفين بالمدينة المنورة ومكة المكرمة، حيث يعطى المبلغ الثاني من مستفاد الثغور الأربعة التي هي: الصويرة والرباط والعرائش وطنجة.

ويعطى المبلغ الأول، وهو الدنانير الذهبية من مرسى تطوان، يصرف على كل من له وظيف بالمسجد النبوي من أعوان وأئمة ومؤذنين وفراشين، وقادين وغيرهم، كل على قدر رتبه.(30)

ج ـ وقفه كلا من فندق الصاغة بفاس على مقعدي المدينة المنورة، وفندق **أعشيش** من فاس أيضا على العمي بالمدينة أيضا، وفندق **النجارين** بفاس على المجاورين بالمدينة المنورة من سجلماسة، وأهل العلم والطلبة الشناكطة والإماء الثلاث، وكان الإشهاد على ذلك بتاريخ 10 جمادى الثانية عام 1189هـ.

د ـ وقفه على 200 من الطلبة وعلى معلمي الصبيان في الكتاتيب القرآنية، سواء من كان منهم ببعض جوامع بريمة بمراكش أو بمدرستيها: **جميع جنانيه الكائنين** قرب القصبة بمراكش، أحدهما يعرف **بجنان العافية**، سقيه من عين جراوة وتسلطانت، وساقية الباشا، وثانيهما يعرف **بجنان السمارة**، ويسقى هو أيضا من تسلطانت، وساقية الباشا أيضا، ومن عين الشريفية، تباع غلتها وتوزع على الموقوف عليهم، وكان تاريخ الإشهاد على هذا الوقف هو أوائل جمادى الثانية عام 1195هـ.(31)

هـ ـ وقفه جميع أعشار غلل أجنته الثلاثة، الكائنة قرب قصبته بمراكش، وكان هذا قبل وقفه أعيانها كما سبق أعلاه، وهي جنان العافية، وجنان السمارة، وجنان غرسية، وجميع ما حصل فيها، ثم يوضع بيد أمين إلى رأس كل محرم من كل عام يأتي، فيدفع للطلبة

(29) انظر (العقد الوقفي في حوالة الزاوية العباسية بمراكش)، الجزء 2، ص: 109، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 11، ورقم ميكروفيلمها 120.

(30) انظر بيانا مفصلا عن توزيع المستفاد من الوقف: الحوالة السابقة أعلاه ج: 2، الصفحتان: 100، 102.

(31) انظر ذلك في نفس الحوالة والجزء السابق، ص: 110.

الذين رتبهم لقراءة دلائل الخيرات وهم 67 طالبا:

منهم 7 بضريح أبي العباس سيدي أحمد بن جعفر الأنصاري الخزرجي السبتي، و60 بضريح الولي سيدي امحمد بن سليمان الجزولي، وكان الإشهاد عليه بتاريخ 19 جمادى الثانية عام 1187هـ.(32)

و - وقفه 200 مثقال، كلها دراهم فضية لبناء سقاية محكمة البناء بحومة باب الخميس بمراكش، قرب باب درب الساقية، يشرب منها الخاص والعام من الناس، وقد جعلها صدقة جارية خاصة بجدته لأبيه وكافلته في حياتها الطبية: لاَلّ خناثة بنت بكار زوجة جده المولى إسماعيل، وكان الإشهاد على هذا الوقف بتاريخ الخميس 22 ربيع الثاني عام 1185هـ.(33)

ز - وقفه جنان الحارثي على أهل الحرة بمراكش(34)، وكان الإشهاد على الوقف بتاريخ 26 شعبان عام 1196هـ.

ح - وقفه كلا من :

1 - **جنان ابن حليمة**، الذي صار فيما بعد بستانا عموميا.

2 - **عرصة الشطرنجية.**

3 - **عرصة البحراوي**، وهي المعبر عنها في عقد الوقف بالعرصة الجديدة بمكناس على المسجد الأعظم بها، وذلك سنة 1203هـ.(35)

ط - وقفه جنان عين المزوار مع ماء عينه لسقيه بما علم له من البياض والسواد خارج باب دكالة بمراكش على مساجد مدينة الصويرة، التي أنشأها في 3 جمادى الثانية عام 1198هـ.(36)

ي - وقفه دارا ودويرتين متصلتين بها وجميع أروى: (اصطبل) يوجد جميعها بدرب سيدي امحمد بن سليمان الجزولي، على مسجد القطب الجزولي، وذلك في أواخر صفر 1204هـ.(37)

ونكتفي بهذا القدر من أوقافه رحمه الله، مما يدل دلالة واضحة على ما كان له من إسعاد للغير، ومن إسعاد له في نفس الوقت.

---

32) انظر نفس المصدر والجزء أعلاه الصفحتان: 116، 117.
33) انظر نفس المصدر والجزء أعلاه ص: 82.
34) انظر نفس المرجع والجزء أعلاه، ص: 218.
35) انظر كتاب (إتحاف أعلام الناس) السابق الذكر ج: 3، ص: 241.
36) انظر (حوالة الزاوية العباسية) ج: 2، ص: 86.
37) انظر (الحوالة الجزولية) ص: 63، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 12، ورقم ميكروفيلمها 125.

ومجمل القول: إن سيدي محمد بن عبد الله، كان رائدا من رواد المغرب الأفذاذ، ساهرا على استقراره وازدهاره، محافظا على كيانه ووحدة ترابه، عالما مبرزا، سياسيا ماهرا، ومصلحا مجتمعيا، وبطلا شهما، ومسؤولا مهابا، ورؤوفا برعاياه رحيما، قد أخلص العمل لله ولوطنه ولرعيته، إلى أن لبى داعي ربه راضيا مرضيا، آمنا مطمئنا، ليلة الإثنين 16 رجب عام 1204هـ وقيل يوم الأحد 24 رجب 1204هـ (1790/4/11م) بين وادي يكم ووادي الشراط، فحمل لداره بالرباط، ودفن بإحدى قبابها.

وكانت فترة ملكه رحمه الله 33 سنة و5 أشهر، قضاها كلها في الجهاد، ونصرة الإسلام والمسلمين.(38)

الرباط ـ السعيد بوركبة

مصادر البحث ومراجعه :

1 ـ (الاستقصا في تاريخ دول المغرب الأقصى)، لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري.

2 ـ (الدرر الفاخرة) لمولاي عبد الرحمان بن زيدان.

3 ـ (إتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس)، لمولاي عبد الرحمان بن زيدان.

4 ـ (حوالة الزاوية العباسية)، ج: 2، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 11، رقم ميكروفيلمها 120.

5 ـ (الحوالة الجزولية)، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 12، رقم ميكروفيلمها 125.

6 ـ كتاب (حياة سيدي محمد بن عبد الله)، للأستاذ لحسن العبادي.

7 ـ (الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية)، للشيخ محمد المكي الناصري.

38) انظر كتاب: (الدرر الفاخرة) لمولاي عبد الرحمان ابن زيدان ص: 55.

على هامش موسوعة ابن عبد البر في فقه السنة

التمهيد

لما في الموطأ من المعاني والأسانيد

للأستاذ سعيد أعراب

أنهت لجنة التحقيق عملها في كتاب (التمهيد) للإمام الحافظ أبي عمر يوسف ابن عبد البر النمري القرطبي، الذي أمر صاحب الجلالة الحسن الثاني بنشره، وقامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بإخراجه، وصدر منه حتى الآن أربعة وعشرون جزءا، وبها انتهى نص الكتاب، ويوجد تحت الطبع الجزءان الأخيران (25 ـ 26)، وهما خاصان بالفهارس العامة.

والكتاب ضمنه مؤلفه شرح أحاديث الموطأ، وهي ثمانمائة وثلاثة وخمسون حديثا، برواية يحيى بن يحيى الليثي المصمودي الطنجي، وأضاف إليها أضعاف أضعافها، مما يتصل بمعانيها من أحاديث وآثار، وفي هذا المعنى يقول:

بسطت لكم فيه كلام نبيكم
بما في معانيه من الفقه والعلم
وفيه من الآداب ما يهتدى به
إلى البر والتقوى وينهى عن الظلم

وهو موسوعة كبرى في علوم الحديث وفقه السنة عز نظيرها في التشريع الإسلامي، بل لا يوجد لها مثيل، كما يقول الإمام الناقد أبو محمد بن حزم.(1)

وقد شارك في تحقيقه ثلة من العلماء في مدة استغرقت نحو ربع قرن من الزمن، وهي تكاد تساوي المدة التي قضاها المؤلف في كتابته:

1) انظر: رسالة ابن حزم في فضائل أهل الأندلس، تحقيق وتقديم: صلاح الدين المنجد، ص: 13، 14.

سمير فؤادي مذ ثلاثين حجة
وصيقل ذهني والمفرج عن همي

وهو عمل ليس بالهين كما قد يتبادر إلى أذهان بعض الذين لم يمارسوا هذه المهنة الشاقة، وقديما قال الجاحظ وهو الأديب البليغ: إن إنشاء عشر ورقات من حُرِّ اللفظ وشريف المعنى أيسر من إتمام نقص حتى يرد إلى موضعه.(2)

ويكفي أن نعرف أن النسخ التي تعاونت على تحقيقه بلغت اثنتي عشرة نسخة، استوردتها الوزارة - مشكورة - من مختلف أقطار العالم الإسلامي، بالإضافة إلى ما كان قد تم تصويره من مكتبات المغرب، ولا توجد من بينها ولو نسخة واحدة كاملة، ولا تسأل عما بها من بتر وخروم ونقص يصل أحيانا إلى عدة صفحات، وكان لعامل الزمن أثره، فالنسخ القديمة التي عمرها تسعة قرون أو تزيد، قد أثرت فيها الرطوبة، فانمحت كتاباتها، وتلاشت أطرافها، والتهمت الأرضة منها ما شاءت، فجاء التصوير في أكثرها باهتا لا يكاد يقرأ، وتغيب أحيانا جل هذه النسخ، ولا يبقى مع المحقق إلا الباهت الناقص، أو الممحو المبتور، فيضطر إلى الاستنجاد بمصادر خارجية، ونصوص إضافية.

2) انظر: كتاب الحيوان، ج1/ 64.

ومن هنا اختلفت مناهج التحقيق في الكتاب، وتعددت أشكالها، فعند انعدام الأصل (الأم)، أو الفرع الذي له مقوماته، وتكون النسخ يكمل بعضها بعضا، يلجأ المحقق إلى التلفيق، وهي طريقة عابها كثير من رجالات هذا الفن، ولكن للضرورة أحكام. ولذا، جاءت فجوات في التحقيق كانت لابد منها، ونعتذر عنها مسبقا.

على أن هناك ظاهرة غريبة في نسخ (التمهيد)، وهي أنها تختلف في أحجامها اختلافا بينا، فمنها الكبير الذي تصل أسفاره إلى عشرين سفرا، أو سبعين جزءا بالتجزئة الحديثة، ومنها المتوسط الذي يبلغ عدد أسفاره العشرة، ومنها الصغير الذي لا يتجاوز حجمه أربعة أسفار، وهي - كما يبدو - تمثل المراحل التي مر بها تأليف الكتاب، ويمكن إجمالها في ثلاث مراحل:

أ - **مرحلة النشوء:** وتتجلى في نسخة الظاهرية، وهي أصغر النسخ حجما.

ب - **مرحلة النمو:** وتمثلها ثمان نسخ: ثلاث منها مشرقية، وخمس مغربية.

ج - **مرحلة النضج والكمال:** وتتمثل في ثلاث نسخ، هي شبه أصول لا تختلف في ما بينها إلا اختلافا يسيرا، وقد أدخلت عليها تعديلات جذرية، مما يعطي الكتاب

صورته النهائية، أقدمها نسخة جامع القرويين، التي تم نسخها سنة (505هـ)، تليها نسخة استنبول، التي فرغ منها ناسخها عام (570هـ)، ثم نسخة ابن يوسف بمراكش، استنسخها الأمير الحسن بن أبي حفص المرتضى من أواخر الأمراء الموحدين، وقد كتبت سنة (607هـ)، وهي جميعا بخط أندلسي، أو مغربي قريب من الأندلسي.

*** منهج ابن عبد البر في دراسة النص الحديثي :**

من المعلوم أن منهج أهل الحديث نقلي وصفي، وهو يتناول جانبين:

1) **السند**: رجال الحديث، ويسمى في العصر الحديث بالنقد الخارجي.

2) **المتن**: وهو أقواله ﷺ وأفعاله وإقراراته وأحواله، ويدعى بالنقد الداخلي.

وصنيع ابن عبد البر، أن يورد الحديث على الصورة التي وصل إليها بها، فيفحصه كالطبيب المعالج، فينظر ما به من أدواء، فيسلط عليه الأسئلة التالية:

- هل هو مكتمل البنية، لا إسقاط فيه ولا خلل؟

- ثم هذا البناء، هل هو صحيح لا غش فيه ولا تدليس؟

فإذا كان مكتمل البناء، فهو المسند المتصل، وإن لم يكن كذلك، وظهر فيه إسقاط وخلل أكمله. وهنا يدخل معنا المنقطع: وهو ما سقط فيه أكثر من اثنين، والمرسل: وهو ما أرسله صحابي أو تابعي، والموقوف: وهو ما وقف به على الصحابي، والبلاغ: وهو ما يقول فيه مالك (بلغني)، وبعد أن يذكر الحديث، يكر عليه بالنقد والتمحيص - سندا ومتنا - فيبين درجته، وينزل رواته منازلهم؛ فهذا حديث صحيح ثابت بنقل العدول الثقات له، وذلك حديث منقطع غير متصل ولا مسند، فيرويه من طريق آخر، ويوثق الراوي فيقول فيه: ثقة عدل، أو تابعي، وليست له صحبة، أو هو مخطىء في زعمه ذلك، ولم يسلم من نقده حتى كبار الشيوخ والأئمة، أمثال: مالك، والشافعي، وأبي حنيفة والبخاري، وأضرابهم.

فإن انتهى من السند، أو أقامه على السداد، أخذ في متن الحديث يختبر ألفاظه وكلماته، فربما أدرجت كلمة أو حرفت عن وجهها، أو سقطت منها جملة أو عبارة برمتها، فإن استقام المتن على الوجه الصحيح، شرح ما في لفظ الحديث من كلمات غريبة، أو عبارات غامضة. ومن هنا يخلص لما في الحديث من أحكام الفقه، وآداب الإسلام، ويعرض ما استنبطه على آراء الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين، وإذ يفرغ من الرواية والنقل، يبدأ في النقد والتعليق، فيأخذ في مناقشة الآراء، ويقارن

بينها، وينقذ الحجج التي استندت إليها، ثم يعرض الرأي الذي يرتضيه معززا بالحجج والبراهين.(3)

• موضوعات الكتاب :

ومن تحليل منهج أبي عمر في دراسة النص الحديثي وتوثيقه وخدمته لغة وفقها، يتبين لنا أن الموضوعات الرئيسية التي تناولها الكتاب هي كالتالي:

• أولا: دراسة نقدية تحليلية لألقاب الحديث، وجعلها كمقدمة للكتاب.

• ثانيا: التعريف بالرواة، وذكر سيرتهم وأنسابهم ومنازلهم وشيوخهم وتلاميذهم ووفياتهم، بدءا بشيوخ مالك، وانتهاء بالصحابي راوي الحديث، وكثيرا ما يحيلنا المؤلف في هذا الصدد على كتابه (الاستيعاب في معرفة الأصحاب).(4)

• ثالثا: الجرح والتعديل :

امتاز ابن عبد البر بالحس النقدي في دراساته الحديثية، وقد حاولت رصد الذين وضعهم أبو عمر في الميزان، فألفيتهم ينوفون على خمسمائة راو.

• رابعا: مرويات ابن عبد البر :

مر بنا في صدر هذا البحث، أن المؤلف أضاف إلى أحاديث الموطأ أضعاف أضعافها مما يتصل بمعانيها من أحاديث وآثار، وهي جميعا بأسانيده المتصلة، مما يشكل مسندا خاصا، يجوز أن نسميه بـ: (مسند ابن عبد البر).

• خامسا: فقه الحديث :

وهو ما يستنبط من الحديث من أحكام وآداب وأخلاق حسب دلالاته اللغوية، وطبق ما تقتضيه قواعد التشريع العامة، وسبق أن ابن حزم نوه بهذا الجانب من كتاب (التمهيد)، وينبغي أن يوضع معجم لفقه أبي عمر بن عبد البر على غرار معجم أبي محمد بن حزم المستخرج من (المحلى).(5)

• سادسا: الفقه القرآني :

وهو المستنبط من آيات الأحكام، وكثيرا ما نجد ابن عبد البر يقول: «وهذا مما يدخل في التفسير المسند». وقد حاول أبو عمر في مواضع من الكتاب

---

3) انظر: مقدمة الاستذكار /ج1، ص: 15، 16.

4) طبع الكتاب عدة طبعات، ونشر أخيرا على غير ترتيبه الأصلي بتحقيق البجاوي.

5) وقد أخرجته لجنة موسوعة الفقه الإسلامي بدمشق في جزأين.

أن يربط بين التشريعين: القرآني والسني، وهو الذي نعنيه بهذه الفقرة.

• **سابعا: القراءات :**

عرض المؤلف في غضون الكتاب لجملة من القراءات، يدخل بعضها في وجوه اللغة، والبعض الآخر في استنباط الأحكام، وقد توسع أكثر في شرح حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف»، ونفى أن يكون المراد بالسبعة الأحرف: القراءات السبع، فالقراءات - في نظره - لا تنحصر في سبع ولا عشر ولا أربع عشرة، وقد طبق ذلك على سورة الفرقان التي ورد الحديث فيها بسبب الاختلاف في قراءة بعض آياتها، فأورد نحو ستين قارئا ممن صحت قراءتهم ما بين صحابي وتابعي فمن بعدهم.(6)

• **ثامنا: العقيدة الإسلامية :**

ونبادر إلى القول بأن ابن عبد البر على مذهب السلف في الاعتقاد، فالإيمان عنده قول وعمل، يزيد وينقص، وأن أسماء الله الحسنى وصفاته العليا يجب الإيمان بها على ظواهرها، كما وردت في الكتاب والسنة، دون تأويل أو تفسير، مثل قوله تعالى: ﴿**الرحمان على العرش استوى**﴾، وأنه سبحانه في السماء، ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، كما جاء في الحديث الصحيح.(7)

وقد انتقده ابن الجوزي في كتابه: (صيد الخاطر) نقدا لاذعا، ونسبه إلى القول بالجهة،(8) لكن ابن تيمية برأ ساحته، وأعطى توضيحات لمعنى الجهة، وأيد مذهب السلف بالحجة والبرهان، وأطال في ذلك.(9)

• **تاسعا: أصول الفقه :**

هناك قواعد أصولية تكاد تتفق عليها جيمع المذاهب في استنباط الأحكام، ومنها ما اختلف فيه، ومن ذلك خبر الواحد، وسد الذرائع، وعمل أهل المدينة، إلى غير ذلك، ومن مؤلفات ابن عبد البر في هذا الباب: (الشواهد في إثبات خبر الواحد)، وأكثر هذه القواعد نجدها مبثوثة في أضعاف الكتاب.

• **عاشرا: فقه الصحابة :**

وفيهم المكثرون، والمتوسطون، والمقلون، ومن المكثرين: عائشة أم المؤمنين - ض -،

---

6) انظر: التمهيد، ج8، ص: 301، 314.

7) التمهيد، (ج7)، ص: 128، 144، 151، 152. / (ج9)، ص: 252، 253، (ج22)، ص: 81.

8) انظر ص: 84.

9) انظر: الفتاوى (مجلد3)، ص: 25، و(مجلد5)، ص: 194، 199، 523.

ويمكن إخراج جزء كامل في فقهها ومحاجاتها لكبار الصحابة، وإذعان أكثرهم لها بالحجة والبرهان، وليست عائشة وحدها في الميدان، فهناك صحابيات أخريات، وتابعيات لهن آراء جريئة في هذا المضمار، والموضوع جدير بالبحث والدرس.

• حادي عشر : فقه التابعين وتابعيهم :

بما في ذلك فقه أئمة المذاهب، سواء منها ما اندثر أو ما بقي، وقد مخص أبو عمر آراءهم، وقارن بينها، ورجح منها ما عضدته الحجة وأيده النظر، وهو الخلاف العالي، أو الفقه المقارن. وابن عبد البر من المجلين في هذا الميدان ـ كما يقول معاصره ابن حزم ـ: «وممن أدركنا من أهل العلم على الصفة التي من بلغها استحق الاعتداد به في الاختلاف: أبو عمر يوسف بن عبد البر».(10)

ويقال بأن ابن عبد البر أول من هتك حجاب الهيبة عن الأئمة، وقد انتقذهم واحدا واحدا، وفي مقدمتهم: مالك الذي اعتنق مذهبه، ودافع عنه بكل قواه، ولعله هو الذي جرأ تلميذه ابن حزم ليقوم بحملة شعواء على أئمة المذاهب بجرأة كبيرة، وقسوة نادرة، حتى لقد قيل: سيف الحجاج، وقلم ابن حزم، لا يعرف لهما مثيل.

ويبدو أن ابن خلدون لم يقف على كتاب (التمهيد) الذي ملأه مؤلفه بالخلافيات، وكرر القول بأن من لم يعرف الخلاف لم يعرف الفقه، ذلك أن ابن خلدون لما عرض لعلم (الخلافيات)، أورد طائفة ممن ألفوا في ذلك في مختلف المذاهب،(11) ولم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى كتاب: (التمهيد)، وهو أوفاها وأوسعها في هذا الباب، لكن ابن خلدون ـ على عادته ـ لما تعوزه الحجة، وتدلهم أمامه المسالك، يلجأ إلى تعليلات، هي ـ أحيانا ـ أبعد ما تكون عن الواقع، فهو يعلل قلة تآليف المالكية في هذا الميدان بأنهم أهل أثر، وليسوا أصحاب نظر، وأيضا فأكثرهم ـ كما يقول أهل المغرب ـ وهم أهل بادية، غفل من الصنائع، إلا في الأقل.(12)

وهو تعليل لا يقوم على أساس، بل هو أشبه بما علل به قصور المغاربة في البلاغة

---

10) انظر: أعلام الموقعين (لابن القيم الجوزية) (ج1)، ص: 30.

11) انظر: المقدمة (الخلافيات) ص: 823، 824.

12) المصدر السابق، ص: 1036.

على زعمه، وقد ناقشته في ذلك في بحث لي عن (المنزع البديع) للسجلماسي.(13)

وإذا عدنا إلى الكتاب (التمهيد)، نجد أكثر أبحاثه في الخلاف العالي قائمة على النظر، لكن للنظر ـ كما يقول ـ حدود لا يتجاوزها، وقد عاب على الأحناف أنهم ردوا طائفة من الأحاديث الصحيحة بمجرد الرأي، ويقرر أن لا مدخل للنظر مع صحيح الأثر.(14)

إذن تبقى تعليلات ابن خلدون لا مدلول لها، على أنه حاول أن يتخلص من إيراد ورد عليه بما كتبه الباجي وأبو بكر ابن العربي في الحجاج والخلافيات، فأشار إلى أنه يمكن استثناؤهما من القاعدة، لأنهما عاشا بالمشرق، وحملا معهما مذهب المشارقة.(15) ولا أدري ما جوابه عن الإمامين الجليلين: ابن رشد الجد مؤلف (المقدمات)، والحفيد صاحب (بداية المجتهد)، وهما لم يعرفا المشرق، أو على الأصح لم يدرسا بأقطار المشرق، ولعل ما هول به ابن خلدون في هذا الصدد، هو الذي دفع بالدكتور حسين مؤنس إلى القول بأن الدراسات الحديثية في الأندلس لم تؤد إلى تغيير رئيسي في التشريع، أو في مستوى التفكير العام على الأقل ـ كما حدث بالمشرق ـ وزاد يقول: «فإلى أواخر القرن الرابع الهجري، لا التشريع تطور نتيجة لهذه الحركة، ولا ظهر نوع جديد من التفكير على أساس هذا المستوى الجديد.(16)

وللرد على الدكتور مؤنس، نحيل القارئ على كتابي (المحلى) لابن حزم، و(التمهيد) لابن عبد البر، فهما نمط جديد في التفكير، وتغيير رئيسي في الدراسات الحديثية.

• ثاني عشر: السيرة النبوية :

وهي شمائله ﷺ وسراياه وغزواته وأعلام نبوته، وقد عرض أبو عمر في مواضع من الكتاب لجوانب من سيرته ﷺ، أثبت فيها خلاصة كتاباته (الدرر، في اختصار المغازي والسير).(17)

• ثالث عشر: الآداب والأخلاق :

أورد ابن عبد البر في غضون الكتاب طائفة من أحاديث وآثار في الآداب والأخلاق، مما يشكل كتابا بكامله.

---

13) انظر: مجلة (دعوة الحق) السنة 5 ـ العدد 4 ص: 53، 56.
14) انظر: (التمهيد) (ج8)، ص: 411، 412.
15) انظر: المقدمة ص: 809.
16) انظر: كثبية: شيوخ العصر في الأندلس ص: 66.
17) وهو كتاب مطبوع متداول.

- **رابع عشر: لغويات :**

شرح غريب الحديث، وقد اعتمد في ذلك أمهات الدواوين اللغوية، معززا ذلك بشواهد من الشعر العربي القديم، وقد تجاوزت شواهده الثمانمائة بيت، وربما عرض لمسائل نحوية، مستقصيا شواهدها.(18)

- **خامس عشر: أدبيات :**

عني ابن عبد البر بالأدب منذ حداثة سنه، فتتلمذ للشاعر الأكبر أبي عمر يوسف بن هارون الرمادي، وذكر بعض قطع من شعره في كتبه،(19) وأورد في أحاديث الأخلاق مجموعة أشعار في الحكمة والأمثال، وقد قال جابر بن معدان: بأن كل حكمة لم ينزل بها كتاب، ولم يبعث بها نبي، فقد ذخرها الله حتى تنطق بها ألسن الشعراء.(20)

ومن الذين أورد لهم كثيرا في هذا المضمار: أبو العتاهية، ومحمود الوراق، ومنصور ابن إسماعيل الفقيه؛ وقد قال الجاحظ في حق أبي العتاهية: إن في أقواله روائح الجنة، ولابن عبد البر تآليف في حكمه وزهدياته، أسماه (الاهتبال، بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال). وتوجد نسخة منه مخطوطة بمكتبة عارف بالمدينة المنورة.

ولعل أوجز عبارة وأوعبها في موضوعات هذه الموسوعة، ما يشير إليه الفتح بن خاقان في مطمحه إذ يقول: «صحح المتن والسند، وميز المرسل من السند، وفرق بين الموصول والقاطع، وكسا الملة منه نور ساطع، حصر الرواة، وأحصى الضعفاء منهم والثقات، جد في تصحيح السقيم، وجدد منه ما كان كالكهف والرقيم، مع معاناة العلل، وشرح المقفل، واستدراك المغفل. وله فنون هي للشريعة رتاج، وفي مفرق الملة تاج».(21)

وبعد، فهذه نظرة عجلى في موسوعة تجاوزت صفحاتها تسعة آلاف وخمسمائة صفحة، لم أقصد بها إلى الدرس والتحليل واستخلاص النتائج، وإنما أردت فقط إعطاء صورة تقريبية عنها، وهي من أضخم تراثنا في التشريع

---

18) من ذلك الخفض بالمجاورة، وقد أورد له ستة شواهد من الشعر، وشاهدين من القرآن الكريم.

19) انظر: التمهيد (ج5)، ص: 175.

20) انظر: بهجة المجالس (ج1)، ص: 38.

21) انظر: ص: 62.

الإسلامي نعتز به ونفاخر، وقد ذيلت ـ كما أسفلت ــ بفهرس عام يكشف عن مضامينها، ويبرز أهم مباحثها، مما سيجعلها ميسورة للقارئ، ويخفف من عناء الباحث والدارس، والله الموفق، والهادي إلى أقوم طريق.

تطوان ـ سعيد أعراب



شاعر من العدوتين في العهد المحمدي
جعفر بن أحمد بن خالد الناصري

للأستاذ عبد الحق المريني

البيت الناصري: هو أحد البيوتات المغربية الشهيرة المتضلعة في مختلف العلوم الأدبية والدينية والتاريخية، تدريسا وخدمة وتأليفا ونشرا.

وكان أبو العباس أحمد بن خالد الناصري - صاحب المؤلف التاريخي الذي طبق صيته الآفاق: «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» - أحد أبناء هذا البيت العريق في المجد العلمي، لم يترك لنا بعد وفاته رحمه الله سنة 1315هـ تراثا ثقافيا في شتى العلوم والفنون الأدبية والإسلامية والتاريخية فحسب، بل ترك لنا أيضا ذرية صالحة، تخرجت من مدرسته في التاريخ والأدب والسير، وورثت سره علما وأدبا وتدوينا: محمد العربي، ومحمد، وجعفر الناصريين.

فكان أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد الناصري سند والده في تخريج مؤلفاته وكتاباته، وتنظيمها وتنسيق فصولها، عكف على تربية وتثقيف شقيقيه جعفر ومحمد «الفرقدين النيرين في سماء الأدب، وفرسي رهان في حلبة التفوق والاطلاع» كما وصفهما فقيد الأدب المغربي الشاعر الأديب محمد بن العباس القباج رحمه الله.

وولج محمد الناصري الأخ الأصغر بعد إتقانه العلوم العربية، المدرسة

(*) أجزي الشكر الجزيل، والثناء الجميل، لصديقنا الأديب السيد أحمد بن جعفر الناصري، الذي تفضل وزودني بكثير من التقاييد المفيدة التي ساعدتني على تحرير هذا المقال، الذي هو ملخص لمحاضرة ألقيتها في الندوة العلمية للعدوتين.

الفرنسية، وانكب على دراسة لغتها وآدابها وحقوقها، حتى اتسعت فيها مداركه، وعلت فيها معارفه، فقام بترجمة الجزء الخاص بالدولة السعدية من كتاب والده الاستقصا إلى اللغة الفرنسية، وطعمه بتصحيحاته وتعليقاته واستدراكاته. كما قام بنشر عدة وثائق باللغة الفرنسية من تأليفه وإنشائه، نشرها بالصحف الفرنسية تحت عنوان: «بيان حقيقة من القصر الملكي بالرباط».

ولم يخرج محمد الناصري عن «القاعدة الناصرية»، بل كان أيضا مؤرخا، كتب مؤلفا في أربعة أجزاء عن تاريخ المغرب القديم وعهد الفتوحات الإسلامية تحت عنوان: «تصحيح الصفحة الأولى من تاريخ المغرب العربي»، وآخر عن تاريخ «الدولة العلوية الشريفة إلى عهد المولى إسماعيل».

أما ثالث الثلاثة: فهو جعفر بن أحمد الناصري، ولد بمدينة سلا سنة 1310هـ، ونشأ في بيت التهذيب الروحي، والتمسك بالقيم الإسلامية، والتحلي بالأخلاق الحميدة، وترعرع في مدرسة العلم والتدريس والتأليف، حتى صار رائدا من روادها، وعلما من أعلامها.

فبعدما حفظ القرآن الكريم، والمتون الأصولية: كالمرشد المعين، وألفية ابن مالك، ومختصر خليل، واستظهر المعلقات السبع، وقصائد فطاحل الشعراء، وتعلم اللغة الفرنسية بالمدارس العصرية، وأصل تحصيل العلوم العربية، والأدبية، والفقهية، والحديثية، والأصولية، على أشياخ العدوتين الرباطية والسلاوية، متنقلا بين المجالس العلمية والنوادي الأدبية، يطالع ويراجع، يحاضر ويساجل، يناقش ويطارح.

وكان من شيوخه الذين أخذ عنهم ولازم دروسهم: العلامة أبو العباس أحمد بن عبد النبي السلاوي، والعلامة المحدث وزير العدلية الشيخ أبو مدين شعيب بن عبد الرحمان الدكالي، والعلامة القاضي محمد الهاشمي بن خضراء، والعلامة القاضي أحمد بن أبي بكر عواد، والعلامة المفتي أحمد الجريري، والعلامة القاضي أحمد بن المامون البلغيثي. وقد جمعته أيام الوظيفة المخزنية في عهد الدولتين: اليوسفية والمحمدية بكثير من العلماء، واستفاد من محاضراتهم ومجالسهم، مثل: العلامة عبد الرحمان القرشي، والعلامة محمد الروندة الرباطي، والعلامة محمد بن العربي العلوي... وغيرهم من الأدباء والشعراء، الذين كانت تزخر بهم العدوتان الشقيقتان (سلا ورباط الفتح) في العهد المحمدي الماجد، فنشأ بينهم، وسلك نهجهم، وحذا حذوهم، في كتابة المقالة، وتحرير الرسالة، ونظم القصيدة.

وقد التحق مبكرا بدار المخزن في العهد
يوسفي ككاتب بالصدارة العظمى، ثم
ين نائبا لوزير العدل في التعليم الديني،
أسندت له رئاسة لجنة الامتحانات بكلية
بن يوسف بمراكش زهاء 12 سنة، وعين
خيرا مندوبا للصدر الأعظم في مندوبية
لأشغال العمومية والبريد والبرق والتلفون
الإنتاج الصناعي.

وقد وافاه الأجل المحتوم ـ رحمة الله
عليه ـ يوم الأحد 16 نونبر 1980
مستشفى ابن سيناء بالرباط، بعد
شهرين من وفاة رفيقته في الحياة.

حرر العلامة جعفر الناصري طوال
حياته عدة مصنفات وتقاييد ورسائل
ازالت مخطوطة قابعة في خزانته العامرة،
ـ نرجو من الله أن يسهل أمر طبعها،
ييسر وسائل نشرها ـ وقد حصرها
بنفسه، وسجل عناوينها في تقييد خاص،
لبية لرغبة العلامة المؤرخ الأستاذ عبد
لله الجراري رحمه الله. منها:

● **(المحيط بالمهم من أخبار صحراء المغرب وشنقيط)** «في مجلدين»:
وكان الباعث على جمعه وتأليفه، ما حدث
من الحوادث المتوالية بعد الاستقلال في
مسألة الصحراء المغربية.

● **(الإحصاء لما وقع بعد لاستقصا)**: وقد ذيل به كتاب والده
لاستقصا، وأرخ فيه للدولتين العزيزية
والحفيظية، وقد نهج فيه نهج والده في
كتابه تنسيقا وترتيبا وتبويبا.

● **(ابن الخطيب بسلا)** : وهو
المؤلف الوحيد لفقيدنا الذي طبعته
ونشرته الخزانة العلمية الصبيحية
السلاوية، وهو جزء من كتاب: «**سلا ورباط الفتح وقرصنتهما**»، فصله عن
الأصل، لما اشتمل عليه من الشوارد
والزوائد والفوائد، فاستحق أن يكون
موضوعا مستقلا، وكتابا منفردا.

● **(سلا ورباط الفتح وأسطولهما وقرصنتهما الجهادية)**: «في أربعة أجزاء
ضخمة»: وهو كتاب ضمنه في جزئيه
الأول والثاني تاريخ العدوتين الرباطية
والسلاوية منذ نشأتهما إلى الوقت
الحاضر، وقسمه ـ حسب الأزمنة
والعصور ــ دولة بدولة، منذ عهد بني
يفرن إلى عهد الدولة العلوية، وأتى فيه بما
خلفته هذه الدول بالعدوتين من العمران
والآثار.

وسجل مؤرخنا في الجزئين الثالث
والرابع ما كان بالمدينتين الشقيقتين
«الرقراقتين» ـ على حد تعبيره ـ من مجد
وذكر في العالم الأوروبي، ومن درج فيهما
من رؤساء البحر وقادة الأساطيل، الذين
كانت لهم السيادة المطلقة في البحر في عهد
الحكم الانفصالي القائم بهما، وما أحرزوه
من النصر، وما غنموه من الغنائم، وما

أسروا من أسرى، وما أسر منهم أيضا من علماء وشخصيات مشهورة، وما ترتب عن ذلك من معاهدات، وتبادل السفارات والبعثات الديبلوماسية، لأجل افتكاك الأسرى، وإنهاء القرصنة، وإحلال السلم، وإبرام المعاهدات الاقتصادية والتجارية.

وقد أعطى المؤلف في الجزء الخامس من مؤلفه لمحة عن تاريخ الأسطول المغربي بصفة عامة، والأسطول السلاوي الرباطي بصفة خاصة، وأتى بعرض مفصل عن تاريخ القرصنة السلاوية الرباطية.

وقد خصص الجزء السادس لترجمة لما لا يقل عن ثمانين رئيسا بحريا من رؤساء البحرية للعدوتين، وقد تخللت هذه الأجزاء نوادر وحوادث وأخبار، وأدبيات وأشعار، ومساجلات ذات أهمية واعتبار. من أهمها ما ذكره من أشعار في التغني بالعدوتين لمختلف الشعراء القدامى والمحدثين، الذين وصفوا مناظرهما ومآثرهما، وتشوقوا إلى مغانيهما، وتذكروا سالف أيامهم الزاهرة بهما، ومدحوا صلحاءهما وأعلامهما وأدباءهما، وجاء ذلك تحت عنوان: **(مقامة العدوتين ومنظرهما ووصفهما من أعلى منار حسان).**

● **(سلا في التاريخ):** الذي تضمن تاريخ سلا الحديثة.

● **(الأسطول المغربي):** الذي يشتمل على تاريخ الأساطيل المغربية، وما كان لها من صولة وسلطان في البحرين الأبيض المتوسط والمحيط.

● **(أعمال المبشرين بالمغرب وصحرائه وإفريقيا):** وهو كتاب يقص علينا قصة تهافت المبشرين والرهبان على المغرب وإفريقيا، لنشر دعايتهم الدينية بالإغراء والترغيب والتمويه.

● **(الجديدة وأكادير مدينتان برتغاليتان بالمغرب):** وهو مؤلف يشتمل على تاريخ المدينتين وعلى ما دارت حولهما من أخبار وحوادث عند احتلالهما وتحريرهما من قبضة البرتغاليين.

● **(الكتابة والكتب والمكاتب):** تحدث فيه المؤلف عن تاريخ طبع الكتب، وعن ظهور المطابع، وعن تطور الخط العربي، وعن الخزانات الخاصة وتاريخها، وخلل ذلك بذكر أخبار طريفة، وأشعار نادرة تناسب المقام، إلى غير ذلك من السير والرحلات **(كالرحلة الفاسية والرحلة الباريزية)** والمحاضرات، والبحوث، والمقالات في التاريخ، والأدب، والإرشاد، والاقتصاد، والاجتماع، والأخلاق، المنشورة في مختلف المجلات والجرائد المغربية، إما بقلمه، أو تحت اسم مستعار، وهو: «محب العلم».

وترك جعفر الناصري أيضا، ديوانا شعريا، سجل فيه كل ما نظمه في عهد الصبا وأيام الشباب، وقد ضاعت جل قصائده، ولم يبق منه إلا شذرات مثبتة في بعض مؤلفاته ورسائله، وبعض المساجلات الشعرية الأدبية مع شعراء العدوتين، وخاصة مع شاعر رباط الفتح، الأديب الأودعي، أبي عبد الله محمد بوجندار رحمه الله.

وكان شاعرنا غير راض عنها «لأن البراعة في الإجادة، والكمال لا حد لهما» كما قال في بعض مذكراته.

وكانت جل هذه الأشعار تدور حول سلا، ومجالسها العلمية، وندواتها الأدبية المشتركة بين أدباء العدوتين.

فيقول في مدح شيخه أبي العباس أحمد ابن عبد النبي، لما ختم دراسة المرشد المعين «دراسة تحقيق وتحصيل ومزيد بيان وتفصيل»، إشادة بذكره، وتيمنا بحلقات دروسه، مطلعها:

نور البشار بالمسرة نورا
وغدا سنا ضوء السعادة مسفرا

إلى أن يقول:

هو الإمام السيد الفرد الذي
في كل علم قد غدا متبحرا

أكرم به شيخا نبيلا بارعا
ذا عزة ومكانة لن تحصرا

ياسيدي فاهنأ بختم قد حلت
نفحاته مسكا ذكيا أذفرا

ختم ابن عاشر الهمام المرتضى
من نظمه أدى العلوم وأظهرا

ولما كان شاعرنا يبحث في تاريخ سلا، ومآثرها التاريخية، نظم قصيدة يحيي بها مدينته العتيقة:

هذه سلا مأوى السرور
ومقر أرباب الصدور

وبها الحضارة قد زهت
بالعلم في ماضي العصور

حل الخليفة قصرهم
لما به كان المرور

(يعني به عبد المومن الموحدي لما مر بها في أول عهده).

وبنو مرين شيدوا
دار الصناعة والظهور

إلى أن يقول:

منها الأساطيل جهزت
للغزو في لج البحور

فتكاثرت أجفانها
وتضافرت تحمي الثغور

و«ابن الخطيب» بها ثوى
لما به حلت أمور

آوى إلى النساك يرجو عفو ربهم الغفور

وبشالة قد كان يندب حظه بين القبور

بسلا وطابت نفسه
وتطايرت عنها الشرور

أكــــرم بها مــــن بلـــــدة
فلك السعـــود بها يـدور

ويشير شاعرنا في قصيدته هذه إلى ما ميز الله به مدينة سلا في ماضيها، حيث كانت «بلد الانقطاع والسكون، والإنابة إلى الله والركون»، «ومدينة الهدوء والخلوة والسلوة»، «يأوي إليها الأفاضل الأخيار، ويحتمي بحماها أهل الصلاح من الزهاد الأبرار». فلا عجب أن يختارها ابن الخطيب ملجأ للتفكير والتأمل، حتى ينعم براحة البال، وبطمأنينة النفس، بعدما عانى من مناصبه السياسية ما عانى.

يقول ابن الخطيب في ذلك:

وصلت حثيث السير فيمن فلا الفلا
فلا خاطري ـ لما نأى وانجلى ـ انجلى
ولا نسخت كربي بقلبي سلوة
فلما سرى فيه نسيم سلا سلا

كما يقول ابن الخطيب من قصيدة أخرى بعث بها إلى الأهل والولد، مشيرا إلى السلو الذي وجده في مدينة سلا، ومتحسرا على ما فات.

إن سلا قلبي من بعد «سلا»
فإلى الغدر بلا شك نزع
ثمر القلــــب بها خلفتـــه
هل لقلبي بعدها من منتجع

وهذا هو ما أشار إليه شاعرنا جعفر الناصري لما وقف على قبر ابن الخطيب بفاس، «وقد سالت من عينه عبرة، وأخذته الحسرة» على ما لقيه ابن الخطيب من كيد عداته، من قصيدة جرت على لسانه:

أوتيت إلى سلا تبغي انعزالا
وفي فاس تخذت فاس قبرا

وقبل أن يتأسف ابن الخطيب على ذهاب سلوه بسلا، تمنى في قصيدته العودة إلى عدوة الرباط، «للتسلي برياضها، وخضر رباها» قائلا:

قل لوادي الغبط(2) هل من عودة
يصل الأنس لديها ما قطع
وسقــى شلــــة عهــد مغــــدق
همى في الـــربـــع منهـــا وهمع
وربـــاط الفتـــح يـــاحـي الحيـــا
مـا بنى المنصور فيه واخترع
و«رياض الشيخ»(3) كم مرأى لنا
فيه يزري بالنهى أو مستمع

وعندما يتذكر جعفر الناصري ما مر في عهد شبابه بالرباط، من «أيام أفراح ونشاط، وانشراح وانبساط، وأنس واغتباط، أيام المذاكرات والمساجلات، والمناظرات والمحاضرات المتصلة الحلقات في المجالس والمنتديات، مع أخدان وخلان

2) لعله يقصد به وادي أبي رقراق.
3) لا ندري ما هو هذا الرياض وأين يوجد.

صنوان وغير صنوان» جرت مع لسانه قصيدة قال منها:

إن الرباط سبا لبي وتيمني
وأصبح القلب في شجو وفي شجن

لأنه قد حوى من كل آنسة
من الحسان أتت كالبدر في الدجن

وكل شيء به مستحسن حسن
وكل نفس به تسلو عن الحزن

إلى أن يقول متحسرا على ما مضى من أيام قضاها بالرباط «ليلها كنهارها، وعشاياها كبكورها».

آه على زمن مرت محاسنه
وعيشه قد مضى أحلى من الوسن

واليوم قد درست عنا معالمه
كأن بهجته الغراء لم تكن

وقد راجت مساجلات شعرية كثيرة بين شاعرنا وشقيقه محمد، ومع بعض الأدباء والخلان في مجالس الأنس التي تستريح فيها النفس، وتذكره «بالمجالس الرشيدية المامونية بدار السلام العراقية، أو بأندية خلفاء الدولة الأموية بقرطبة الأندلسية». من ذلك ما صدر منه في مجلس أدبي، مساجلا أخاه محمد برباط الفتح، أيام الصبى والشباب، لما كان «العيش غض، والزمان غلام» كما قال أبو تمام.

قال جعفر:

فيا له من مجلس
يزهو بأنس وانبساط

نلنا به كل المنى
من ابتهاج ونشاط

يتيه فخرا معجبا
بتحفة من الرباط

والرقبا بمعزل
عنا وذل وانحطاط

فرد عليه شقيقه محمد:

والليل أرخى ذيله
عنا ونحن في اغتباط

والساقي يجلو خمرة
حمراء في حسن بساط

يديرها بلحظه
وبالقراح والبواط

لا نال من قد لامنا
مع الحسود في انهباط

ولما مر جعفر صحبة شقيقه يوما بشارع من شوارع رباط الفتح، رأى فتاة من الإفرنج «تسقي المعجبين بها كؤوس الراح، وتلعب بالقلوب والأرواح» ـ كما قال في مقدمة مساجلته الغزلية ـ «فاقت البدر حسنا وجمالا، والغصن قدا واعتدالا، تذكر بالمجنون وليلاه، وقيس ولبناه، وجميل وبثيناه». فقال شقيقه السيد محمد:

مررت بها تسقي كؤوسا من الخمر
فتاة من الإفرنج في الحسن كالبدر
فأردف السيد جعفر قائلا:
فتحيي نفوسا شفها السقم والضنى
وقال السيد محمد :
وتبري قلوبا من هواها على جمر
ثم قال السيد جعفر:
فمن وجهها الشمس المنيرة أشرقت
فقال السيد محمد:
ومن لحظها الساجي تعلم ذو السحر
وكان السيد جعفر يوما في احتفال رائق بأحد بيوت الأعيان الوزراء الرباطيين، وكان العلامة الأديب السيد أبو بكر بناني حاضرا، فأنشد قصيدة في النسيب طلب منه أن يشطرها، منها:
أيا حسن الحسان فتكت فينا
«وصرنا في هواك مقيدينا»
«بألفاظ تذيب الروح لطفا»
وألحاظ تميت العاشقينا
جمعت من المحاسن كل حسن
«سموت بها على الأغصان لينا»
إلى أن يقول:
«ملكت الروح والأشباح منا»
وحزت اللطف والإحسان فينا
أدام الله حسنك في ازدياد
«تصول به على مر السنينا»
«ولا برحت سعودك في صعود»
على رغم الوشاة الحاسدينا

ونود أن نختم هذه الشذرات الشعرية الغزلية بنسيب لجعفر الناصري في مليح حل بمدينة سلا مطلعه:
ألا بشرى فقد تم التلاقي
بمن في الحب للأرواح راقي
إلى أن يقول:
فأهلا بالمليح الفرد أهلا
فقد كنا إليكم في اشتياق
حللت سلا فتاهت منك عجبا
على مصر وشام مع عراق
لقد حزت الجمال فصرت فردا
على الغزلان طرا باتفاق
ثم يختم قصيده قائلا:
فجد لي بالرضا واسمح بوصل
فإن الروح صارت في التراقي
ودم واسلم على مر الليالي
تفوق البدر في حسن ائتلاق
وكان منزل «أديب رباط الفتح وصاحب آيات الفتح» محمد بوجندار بمثابة عكاظ الأدب بالعدوتين، كما ذكر أديبنا السيد جعفر الناصري، حيث كان يتدارس فيه كل ما يروج في سوق الأدب المغربي، وتلقى فيه محاضرات نثرية، ومساجلات شعرية. من ذلك أنه لما كان أدباء العدوتين في نزهة بروضة غناء «ولما راق مجلسهم، وطابت أنفسهم» خاطب أبو عبد الله محمد الناصري أبا جندار بقوله:

إشرب كؤوسا أترعت في مجلس
يسقيكها رشا غدا مخمورا

فأجابه بوجندار بقوله:

رشاء إذا سكنات جفنه حركت
شمت الضمير بكسره مجرورا

إلى آخر المساجلة.

ومما كان يروج في النادي الجنداري أيضا، أن بعض أدباء العدوتين كانوا يتبارون شعرا في حل بعض الألغاز، ذلك أن أديب سلا أبا المسك الحاج الطيب عواد كان نشر لغزا في لفظة «دلو»، وأديبها ومحتسبها أبا العباس أحمد الصبيحي نشر لغزا آخر في لفظة «نحل»، وكان الشعراء الحاضرون في النادي يتبارون في حلهما، والجواب عنهما.

وقد دارت في هذا النادي أيضا بين أدباء العدوتين مراسلات أدبية، ومطارحات شعرية، تبادلوا فيها التهاني بخلق هذه الحركة الأدبية، وتمجيد من فاز في ميدانها، وفتح أقفالها. من ذلك قول الحاج الطيب عواد في مدح أدباء الرباط:

«للفتح» أهل فضلهم لا يجهل
وعليهم في المشكلات يعول
ولهم لدى كشف الغوامض همة
من دونها انحط السماك الأعزل

فأجابه محمد بوجندار بقوله من قصيدة طويلة:

أهيل سلا الغراء شكرا على شكر
فقد أشرقت من فكركم غرة الشعر
بهرتم بآيات أضلت بهديها
ولا غرو فالإضلال من آية السحر
وطوقتم جيد الزمان ونحره
بدر نفيس جاء من أنفس الدر
إذا ذكر السادات كنتم، وحقكم
كفاتحة التنزيل في أول الذكر

فرد عليه أديبنا جعفر الناصري بقطعة من نفس الوزن والرواية، يقول منها مادحا:

أهيل رباط الفتح مني عليكم
سلام يفوق المسك والعنبر السحري
فأنتم بدور قد عنت لكم العلا
وأنتم بحور الفضل من سالف الدهر
زففتم لنا منكم عرائس طوقت
بمدح سلام تحتال في حلل الفخر

إلى أن يقول في آخر قطعته:

بقينا أهيل الفتح نحن وأنتم
على غاية التبجيل في السر والجهر
ودمنا كأرواح بجسم تمازجت
كما امتزج الماء الزلال مع الخمر

وقد كانت الدعوة تتم بين هؤلاء الأدباء الفطاحل لحضور جلسة من جلسات النادي الجنداري شعرا ونظما.

فقد خاطب بوجندار الأديبين الناصريين لعقد مجلس أدبي بناديه بقوله:

خـلاي يـا ابنـي أحمد
الأحمـــدي الأحمـــدي
الفـرقـديـن النيريـن في سماء السـؤدد
هـل تـريـا اجتماعنـا
في الغـد يـوم الأحـد

إلى أن يقول:
ولكما أن تصحبـا
مـن شئتما مـن أغيـد
وشـاعـر كـالشـاعـر المقـرظ المفـرد(4)
ولتحـذرن أن تغفـلا
عبد الحميـد الأحمدي(5)

ولما وصلت هـذه الـدعـوة إلى الأسرة الناصـرية، أجـابه جعفـر النـاصري بقوله:

يـا أيها الخل ومـن
قـد حـاز أعلى السؤدد
أتـى قـريضـك الـذي
يفـوق شعـر أحمد(6)
تـروم فيـه جمعنـا
في اليـوم يـوم الأحـد
في مجلـس ينتـابـه
كـل أديـب مفـرد
أعنـي بـه «القبـاج» ذا
المجـد الأثيل السرمـدي

إلى أن يقول في آخر قطعته:
لا زلـت يـا أخـا العـلا
مـرتقيـا لأسعـد

وإن دل هذا على شيء، فإنما يـدل على العـروة الوثقـى التي كـانت تـربط أدبـاء الربـاط بأدبـاء سلا، وخصـوصا الأديب الجندري بالناصريين، لما كانوا يتمتعون به جميعا من الروح الخفيفـة، والطابع الأدبي الغض الطري.

هذه لطـائف مـن شعـر فقيـد الأدب والشعر السيـد جعفر النـاصري في المديح والنسيب، الذي أنشده في رحاب العدوتين، وفي أحضـان منتـدياتها الأدبيـة المشرقة في العهد المحمدي.

وقد قال شعرا آخـر في مختلف الفنون الشعـرية لكنـه ضاع منـه، لعدم اعتنـائه بتقييده وجمعـه، كما ذكر ذلـك في سيرته الذاتية، التي دبجها بخط يده.

رحم اللـه الجميع، وأثاب شاعـرنا على ما قدمه من أعمال علمية جليلة للعدوتين.

الرباط ـ عبد الحق المريني

4) يعني به محمد بن اليمني الناصري.
5) يعني به عبد الحميد الروندة.
6) يعني به أبو الطيب المتنبي.

عرش الخلود

للشاعر محمد البلغيتي

العيد أشرق، فالضياء منتشر ... والكون من نشوة الربيع مزدهر !
والطير غرد في أفنانه فرحا ... وحوله ترقص الأنسام والزهر
والناي زغرد بالألحان منتشيا ... وردد العود ما يبثه الوتر
والمغرب الحر في تمام زينته ... والشعب أجمعه بالعرش يفتخر !
يا شاعر الحسن.. ها يوم السرور أتى ... هذا الذي كنت في الأيام تنتظر
فساجل الورق في إنشادها، وأعد ... ذكرى يروق بها الغناء والسمر !
وقدم الزهر في عيد الخلود شذى ... يضوع من نفحه ثناؤك العطر
وارق السحاب وته. فالقول في **ملك** ... مكانه الشهب والأفلاك والقمر !
من سادة خلدوا بالفخر ماضيهم ... وفي المواطن من أمجادهم صور
هم أنجبوا **الحسن** الفذ الكريم ومن ... تزهو بأمجاده الأزمان والعصر !
محمد بطل التحرير والده ... من كان بالفضل والإحسان يأتزر
كلاهما قد فدى بالنفس أمته ... وآثر النفي إذ دهى الحمى الخطر !
وذا ابنه **حسن** بالعزم متصف ... وبالشهامة والإقدام يشتهر
العدل سيرته، والخلق شيمته ... وهل بغيرهما تخلد السير ؟
إذا تحدث في جمع ومؤتمر ... فرأيه حكم، وقوله درر
مولاي عيدك للأوطان أغنية ... هام الربيع بها والطير والشجر !
أشعارها من قلوب الشعب صادرة ... ولحنها من رحيق الحب يعتصر
يا من جمعت على الإخاء مغربنا ... فالتف تحت لواك البدو والحضر !

مواهب الله قد أوتيتها نعما ... تكاثرت عددا.. فليس تنحصر
أعمالكم بالحمى عنها مبرهنة ... فكل خير به، لغرسكم ثمر !
لازلت تبذلها لموطني.. فإذا ... دعتك مكرمة، للخير تبتدر
بنيت للنهضة الكبرى قواعدها ... بالعلم أعليتها، فالعلم منتشر
ضياؤه شع في الأوطان قاطبة ... فأشرقت بالسنا الأذهان والفكر !
وذاك مسجدك العظيم معلمة ... في البحر شامخة، بالذكر تزدخر
فالدين والعلم والأخلاق إن جمعت ... بأمة في الدنى، لا شك تنتصر !
وذي السدود على الأنهار قائمة ... من فيضها الماء والخيرات تنهمر
أقمتها لادخار الماء مفخرة ... تفي بحاجتنا إن أخلف المطر !
والمغرب العربي نال وحدته ... وانزاح عن أفقه الخلاف والكدر
وعاد يجمعنا سلم ومرحمة ... فلا عداء ولا روع ولا حذر
وذي مسيرتك الخضراء معجزة ... فيها تحار النهى والفكر ينبهر
بفضلها رجعت صحراء مغربنا ... وزال عن أهلنا العناء والضرر !
مسيرة ستظل الدهر شاهدة ... بفضل مبدعها أيامها الغرر
فضل به تشهد الدنيا وإن عميت ... أبصار قوم.. فلا وعي ولا بصر !
يا طاوي العمر في «تندوف» محتجزا ... تحيا الحياة بها، كأنها سقر
أما ارعويت بما تلقاه من عنت ... أم ضاع منك الحجى والفكر والنظر ؟
عد يا أخي للحمى ولا تكن بطرا ... فأسوأ الناس من يشينه البطر
وقدم العذر تلق العفو من **ملك** ... كم باركت يده من جاء يعتذر !
فهو الأمين على ضمان وحدتنا ... وعرشه المقتدى لشعبنا وزر
مولاي.. ذي باقة للشعر أرفعها ... حبا لعرشك في الأحناء يستعر
لو كان في سعتي نظم النجوم لكم ... عقدا لإهدائه، ما كنت أدخر !
فاسلم ودم سيدي ذخرا لأمتنا ... يرعاك رب عميم الفضل مقتدر
وعاش «**نجلاك**» في عز وفي شرف ... مادان بالشكر للمهيمن البشر
ودم لهذا الحمى طول المدى ملكا ... يحفك النصر والألطاف والظفر !

فاس ـ محمد البلغمي

المغرب والجزائر ومواقفهما في مواجهة الزحف الاستعماري في عهد السلطان المولى عبد الرحمن العلوي والأمير عبد القادر الجزائري في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي

للأستاذ اليوبي الحسن
أستاذ بكلية الشريعة بفاس

1 ــ الجزائر والمغرب في مواجهة الاحتلال الفرنسي:

شهد القرن التاسع عشر الميلادي حملات استعمارية غربية، استهدفت العالم العربي والإسلامي، وكان احتلال الجزائر من طرف الفرنسيين حلقة من تلك السلسلة الطويلة، التي كبلت آمال الأمة الإسلامية، وعرقلت مسيرتها الحضارية.

لقد كانت فرنسا في حاجة إلى منطقة تحقق فيها رغبتها التوسعية، وتشغل بها الجيش القابع في الثكنات، والذي بات يشكل خطرا على الحكم القائم فيها، وكان الملك وأنصاره في حاجة إلى عمل مثير يشغل الرأي العام الفرنسي، ويتيح لهم فرصة الفوز في الانتخابات التشريعية التي تقرر إجراؤها آنذاك، ولم يكن الفرنسيون في حاجة إلى البحث عن هذه المنطقة، فقد حامت حولها أحلام أجدادهم وحددتها، وما عليهم إلا أن يحققوا حلم الأجداد، وقد فعلوا.

ففي التاسع عشر من يونيه سنة 1830م موافق 21 ذي الحجة سنة 1245هـ، حطت فرنسا قواتها الاحتلالية بمرسى سيدي فرج قرب مدينة الجزائر، مدعية أمام العالم بأن هجومها لن يتعدى تلقين درس للقراصنة المقلقين لراحة أوربا، ورد الإهانة التي لحقت القنصل الفرنسي في حادثة المروحة(1). وبهذه الإشاعات ضمنت

1) تعود هذه الحادثة إلى أن الجزائر كانت لها ديون تجارية على فرنسا، وكان باشا الجزائر قد كتب إلى الملك الفرنسي في شأن هذه الديون، فلم يجبه إلى أن كان عيد الفطر عام1243هـ/1827م، فدخل القنصل الفرنسي بالجزائر على الباشا لأداء التهنئة، فلما سأله الباشا عن سبب تأخر الملك في الرد على رسالته، أجابه القنصل=

سكوت الدول الكبرى، وتغاضي الدولة العثمانية، أما الجزائريون أنفسهم فقد جعلتهم رغبتهم في التخلص من الحكم العثماني ينظرون إلى المسألة بتحفظ وحذر إلى حين. وقد حاول الحاكم العثماني في الجزائر مقاومة القوات المستعمرة، فأعلن الجهاد، وجمع القبائل للمجابهة، ولكن مقاومته لم تصمد طويلا، فإلى جانب الموقف السلبي للدولة العثمانية، كانت هناك قوات العدو وتنظيمه وعتاده، وكانت هناك رغبة الجزائريين في التخلص من السيطرة العثمانية، التي غرست في نفوسهم أحقادا وضغائن آن أوان تفجيرها.

ولكي يحافظ الحاكم العثماني على حياته ومصالحه عقد اتفاقية مع الفرنسيين في الثالث عشر من محرم سنة (1246هـ ـ 1830م)، وبمقتضى هذه المعاهدة، تسلمت فرنسا مدينة الجزائر.

وما إن بدأ الفرنسيون بترحيل الأتراك، وإصدار الأحكام باسم ملك فرنسا، حتى أدرك الجزائريون النوايا الحقيقية للدخلاء، واقتنع الفرنسيون بعد اندحار حملتهم على البليدة في 24 يوليو سنة (1246هـ ـ 1830م) بأن توغلهم في البلاد لن يتم بالسهولة التي كانوا يتصورونها، فقد اندلعت نار المقاومة في كل مكان، واتخذت هذه المقاومة منطلقا دينيا تحت زعامة المرابطين بإقليم وهران. فالمرابطون قد احتلوا مكانة دينية سامية في نفوس الجزائريين خصوصا في إقليم وهران.

وكثيرا ما أثارت هذه المكانة التي تستمد جذورها من الدين مخاوف الحكام العثمانيين في الماضي، إلا أن السلطة العثمانية كانت في نظر زعماء المرابطين سلطة إسلامية مهما كان الأمر، وقد انهارت هذه السلطة، وحلت محلها سلطة المحتلين (الكفار)، فقد أصبح الحال يتطلب موقفا آخر.

وقد استطاع المرابطون بقيادة زعيمهم الحاج محيي الدين(2) أن يشنوا غارات متعددة على العدو، ويحققوا في بعضها انتصارات باهرة، إلا أن المقاومة التي كانت تتم على واجهات متعددة، ومتنابذة أحيانا، ومظاهر الفوضى والاضطراب والسلب والنهب بين القبائل، كل ذلك دعا رؤساء المرابطين إلى استشارة زعيمهم في تكوين سلطة لرعاية المقاومة، وضمان النظام والأمن. إلا أن الحاج محيي الدين برهن على بعد نظره وتقديره لضخامة المسؤولية،

=إجابة أغضبته، وكانت بيد الباشا مروحة، فلطم بها وجه القنصل، وقد ثار حكام فرنسا لهذه الإهانة، ووجدوها فرصة لاحتلال الجزائر بدعوى رد الإهانة.
(انظر تفاصيل الحادثة في تحفة الزائر في تاريخ الجزائر).

2) هو أبو الأمير عبد القادر الجزائري.

عندما اعتذر عن قبول منصب (السلطان)، مؤكدا أن القدرات المادية والمعنوية المتوفرة لديهم غير كافية لمواجهة دولة في مثل تنظيم وإحكام الدولة الفرنسية، فالموقف عسير، والحل الوحيد هو الاستنجاد بالسلطان المغربي المجاور، والدخول في بيعته.

وحازت هذه الفكرة قبولا ورضى، وتوجهت بعثة إلى المغرب تحمل رسالة الجزائريين إلى السلطان المغربي.

وقد استقبل المولى عبد الرحمان(3) هذا الوفد بترحيب لا يحظى به إلا الخاصة، وتصور لنا هذه الفقرة من رسالة الوزير ابن عبد الله بن إدريس(4) إلى قائد الجيش الموفد إلى تلمسان مدى هذا الترحيب والاحتفال حيث يقول:

«... وقد كرم سيدنا كل واحد بما يناسبه من الكسوة، وصنع لهم في كل بلد دخلوه مهرجانا، وأدخلهم سيدنا لوسط داره، وجميع جناته، وأماكن المملكة التي لا يدخلها إلا الخاصة، غاية أنهم نالوا من العناية فوق الظن».(5)

ولم يثر مخاوف السلطان في هذه الفترة إلا جانب العثمانيين، باعتبارهم حكام الجزائر، ولهم بيعة سابقة. ولكي يضع حدا لهذه المخاوف، ويجعل لبيعته سندا شرعيا، استفتى الفقهاء في الأمر.

ونشير هنا إلى أن الخلاف الذي وقع بين الفقهاء المغاربة حول قبول بيعة الجزائريين كان نابعا من خلافهم حول عقد البيعة، هل هو عقد يملك الإمام حقه، ويظل محتفظا به مهما كانت الظروف، أم هو عقد يملك الطرف الآخر (الرعية) حق فسخه إذا ما دعت الظروف إلى ذلك، وهو ما ينسجم مع روح الشريعة الإسلامية ومبادئها، في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى العدل، والشورى في الأمر، وهو ما اعتمدته الفتاوى التي نصت على قبول هذه البيعة.

ويمكننا أن نتعرف على هذه الفتاوى من خلال نموذجين:

3) المولى عبد الرحمان بن هشام بن محمد الحسني (1204هـ/1276هـ - 1890م/1859م) من ملوك الدولة العلوية، امتد ملكه من (1238هـ/1276هـ - 1823م/1859م)، تميز عهده بأحداث مزلزلة منها: استيلاء الفرنسيين على الجزائر، وهزيمة المغرب في معركة إيسلي.
(انظر الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري ج9، ص: 3 - 80).

4) أبو عبد الله محمد بن إدريس بن عبد الله العمراوي، المتوفى سنة (1264هـ/1847م). أديب ماهر وشاعر مجيد، تولى الوزارة في عهد السلطان المولى عبد الرحمان، له قصائد جيدة في الحث على الجهاد بعد احتلال الجزائر.
(انظر: النبوغ المغربي في الأدب العربي: عبد الله كنون ج1، ص: 326).

5) الاستقصا : ج9، ص: 30.

النموذج الأول: هو الفتوى(6) التي حررها الفقيه التسولي في الموضوع، وتقوم على حجج يمن حصرها في نقطتين:

1 ـ جواز خلع الجزائريين للبيعة العثمانية لتوفر الأسباب الشرعية المسوغة لهذا الخلع، وفي مقدمتها، عجز الخليفة العثماني عن القيام بواجباته الشرعية التي نصب من أجلها، وأهمها حفظ الدين:

«ولا يخفى أن إمام هؤلاء، بغفلته وعدم تفقده للأحوال، مع مضي مدة يمكنه فيها التفقد لو كانوا على البال، وقع منه غاية الاختلال، وانتكس الدين مع ذلك، ونبذ بالعراء».

2 ـ وجوب تعيين إمام جديد يقوم بأمورهم، خصوصا وقد (اعترتهم فتنتان: فتنة فيما بينهم، وفتنة عدو الدين)، (كما أن أمر الجهاد لا يستقيم إلا مع وجود إمام يضبط الأمور، ويقوم بالشؤون الحربية): (ولا يخفى أن عدم مبادرة القوم لإقامة الإمام، وبقاءهم على الحال، تمكين للعدو ـ دمره الله ـ من استيلاء على الرقاب والأموال، إذ لا مقاتل يتعين، ولا مدافع يتبين).

أما النموذج الثاني: فهو الفتوى التي حررها علماء الوفد الجزائري أثناء إقامتهم بفاس، وتقوم هذه الفتوى على مناقضة فتوى المغاربة، الذين أفتوا بعدم قبول البيعة، واعتبار فتواهم (مبنية على غير أساس).(7)

ويعتمد هذا النقض الحجج الآتية:

1 ـ إن بيعة الجزائريين للخليفة العثماني لا تعتبر شرعية للأسباب التالية:

أ ـ استقلال الوالي العثماني عن سلطة الخليفة: (فهو لا يكترث به أصلا، ولا يتبع له قولا ولا فعلا(8) مما جعل سلطة الخليفة شبه منعدمة بالبلاد، (وإنما له مجرد الإسم هنالك).(9)

ب ـ سوء تصرف الوالي العثماني (المتغلب)، وخروجه عن مقتضيات الشريعة بظلمه وفسقه وتلاعبه بالدين.

2 ـ هناك مبررات (شرعية) تسوغ فسخ بيعة الخليفة العثماني (في حالة اعتبارها)، وتتلخص فيما يلي:

أ ـ بعد المسافة بين هذا الخليفة وبين بلاد الجزائر، مما جعل قيامه بما

6) انظر (نوازل التسولي) ج2، ص: 221 (مخطوط).
7) توجد هذه الفتوى بالمعيار الجديد للوزاني ج3، ص: 37 ـ 38.
8) المعيار الجديد للوزاني.
9) المعيار الجديد للوزاني: ج3، ص: 376.

تقتضيه خلافته أمرا صعبا: (فلم يغن عنا شيئا ملكه).(10)

ب ـ عجزه عن الدفاع عن البلاد أمام الغزو الاستعماري.

3 ـ نظرا لما سبق، فإن المصلحة تقتضي مبايعة السلطان المغربي حسما للفتن، وتعدد القائمين، لاسيما (وقد تطاولت إليها الأعناق، وتشوفت إليها من كل جانب العيون والأحداق).(11)

ورغم أن نسبة المغاربة الذين أفتوا بقبول البيعة ـ وفي مقدمتهم التسولي ـ كانت قليلة، فإن ميول السلطان المولى عبد الرحمان إلى القبول، ونداء الجزائريين الذي تجدد في فتواهم، جعل من طلب الوفد الجزائري طلبا مقبولا.

وتدل الإجراءات التي اتخذت بعد ذلك، على حسن نية المغاربة، وصدق استجابتهم، فقد أرسل السلطان جيشا تحت قيادة ابن عمه إلى تلمسان، وزود هذا الجيش بتعليمات لكسب اطمئنان الجزائريين وثقتهم. ومن هذه التعليمات ما ورد برسالة من الوزير ابن عبد الله بن إدريس إلى القائد المكلف بالجيش الموفد حيث يقول:

«... وهاهم وجههم مولانا مكرمين، ورشح ابن عمه للخلافة عليهم، لما يعلم من عقله ودرايته وسياسته، وإنه ذو نفس أبية، لكون تلك النواحي لا يصلح لها إلا من اتصف بهذه الأوصاف، ليميزوا حالة الساعة مع ما كانوا فيه، وكما رشح مولانا ابن عمه المذكور رشحك لتكون واسطة بينهم وبينه، لكون الأوصاف المذكورة موجودة فيك، فكن عند الظن بك، وإياك والطمع، وازهدوا فيما في أيدي الناس، وكل ما تحتاجون إليه مما لابد منه أخبرونا به يصلكم».(12)

كما أرسل من يدعو القبائل المتنافرة إلى الوحدة، والدخول في أمر الجماعة، وما إن وصل الجيش المغربي إلى تلمسان حتى هبت القبائل إلى أداء مراسيم البيعة الشرعية، وشرع المغاربة في تسيير الأمور، فشنت غارات لتأديب القبائل المتمردة، وألقيت خطب الجمعة باسم السلطان المغربي.

ولم يطل مقام المغاربة بالجزائر، فقد وجهت فرنسا ـ التي لم تكن غافلة عن هذا التحرك الذي يهدد مصالحها الاستعمارية ـ تهديدا شديد اللهجة للسلطان المغربي، وكان عليه أن يختار بين

---

10) نفس المصدر.
11) نفس المصدر.
12) الاستقصا: ج9، ص: 29.

أمرين: إما مواجهة الفرنسيين، أو سحب قواته من الأرض الجزائرية. ولما كان غير مستعد للمتاعب في تلك الظروف والأحوال فقد استقدم جيشه من تلمسان.

ولكن انسحاب الجيش المغربي لم يكن يعني التخلي النهائي عن الجزائر، فقد أرسل السلطان ممثلا دائما عنه، وعندما طلبت فرنسا سحبه احتج قائلا: «... لقد بايعنا أهل هذا البلد من مرسى قسطنطينة إلى تلمسان وبلاد الجريد، وبيعتهم شرعية، وواجبنا أن نقبلها، لأنهم مسلمون...».(13) ولكنه اضطر تحت الضغوط الاستعمارية أن يسحب هذا الممثل سنة (1831م - 1246هـ)، وبذلك انتهى الحضور المباشر للسلطة المغربية على الأراضي الجزائرية، أما المعونة والإمدادات الحربية فلم تنقطع أبدا.

ولابد هنا أن نثير نقطة هامة، وهي ما أثير حول هذا التدخل المغربي في الجزائر من أحكام مغرضة، خصوصا من طرف بعض المؤرخين الأجانب، الذين أضفوا عليه صفة الغزو، وهو حكم لا يمكن تفسيره إلا بأنه جزء من مخطط استعماري كان يهدف - ولا يزال - إلى التفرقة، وزرع الألغام داخل الأمة الإسلامية(14).

ولا يهمنا هنا أن نذكر هؤلاء بالروابط التاريخية العميقة بين القطرين المغربي والجزائري، باعتبار أن هذه المسألة تهم المؤرخ بالدرجة الأولى، ولكن ما ينبغي أن نذكر به أولئك المؤرخين الأجانب هو الروابط الدينية التي أسقطوها من حسابهم، أو تجاهلوها عن قصد.

فكيف يمكن تصور أن يتجاهل السلطان المغربي (البيعة الشرعية) للسكان الجزائريين، بل كيف يمكنه أن يرفض هذه البيعة، متحديا الرأي العام المغربي، الذي تفجر بعنف، داعيا إلى الجهاد، وإغاثة المسلمين المجاورين.(15)

إن تدخل المغاربة في الجزائر كان - قبل كل شيء - استجابة لما تقتضيه الشريعة الإسلامية، وما تنص عليه من واجبات القيام بأمر الجهاد لحفظ الدين وحمايته من غزو الكفار، كما أنه كان تحقيقا لإرادة الجماهير المسلمة في المغرب والجزائر أكثر من كونه مجرد تنفيذ لخطة سياسية معينة، أو رغبة في التوسع كما يدعي المغرضون.

---

13) الوثائق: لعبد الوهاب بن منصور / ج2، ص:76.

14) انظر: (تاريخ المغرب) لتراس، ج2، ص: 230 ط. الدار البيضاء 1949م.

15) لقد عبر المغاربة عن موقفهم من احتلال الجزائر من خلال قصائد شعرية متعددة، وخطب تدعو كلها إلى الجهاد وإعانة الجزائريين، ومن النماذج الهامة في هذا الموضوع خطبة الفقيه التسولي.

2 ـ الأمير عبد القادر يواجه الفرنسيين، ويحظى بمساعدة المغاربة:

وجد الجزائريون أنفسهم بلا قيادة بعد انسحاب السلطة المغربية، ومرة أخرى رغبوا في مبايعة الحاج محيي الدين، الذي نصحهم هذه المرة بمبايعة ابنه عبد القادر، الذي كان آنذاك في سن الشباب.

وبعد البيعة، اهتم الأمير بترتيب أمور دولته الفتية، فعين المسؤولين على الشؤون الداخلية والخارجية، واتخذ مدينة معسكر عاصمة له، وتفرغ بعد ذلك لتوحيد القبائل، وإخضاع المتخلفين عن البيعة لسلطته. ولما أحس بقوة جانبه، بدأ يشن الغارات على الفرنسيين، واستطاع أن يحقق انتصارات باهرة، فقد ألحق بهم هزيمة شنعاء في وقعة المقطع في سنة 1836م. إلا أن المستعمرين بكثرة عددهم وأسلحتهم المتطورة كانوا يتمكنون من الاستيلاء على الأراضي، وكانت قواتهم تتجدد بإمدادات متوالية من فرنسا، بينما كان الأمير يحارب بقوات محدودة تتضاءل بعد كل صدمة، ويعاني من انفضاض القبائل التي ملت الحرب من حوله.

وقد ظلت علاقة المغرب بالجزائر طيلة كفاح الأمير، وبعد انسحاب الجيش المغربي من تلمسان علاقة وطيدة، فما أن استتبت الأمور للأمير عبد القادر، حتى بعث السلطان المغربي وفدا للتهنئة سنة (1834م ـ 1250هـ)، وكان الوفد مصحوبا بهدايا نفيسة، وعتاد حربي وافر، مع مجموعة من الجنود الفرنسيين، الذين فروا من الجزائر إلى المغرب.

واستمرت هذه العلاقة بين البلدين، فلم تبخل السلطات المغربية بشيء في مقدورها أن تدفعه، واهتم السلطان المغربي بتوحيد الجزائريين، وجمع كلمتهم، وهذا ما تشير إليه الرسالة التي بعثها سنة (1250هـ ـ 1834م) إلى أحد المسؤولين بالجزائر، وفيها يقول له:

«... وأنت في ذلك من العقلاء والرؤساء النبلاء، فكان من حقك، والأنسب لمثلك، أن تصلح ما أفسد الحاج عبد القادر، وتسعى في ألفة المسلمين، وتنظر في العواقب، وتقصد بذلك وجه الله وحياطة المسلمين.

وعليه، فإن أردت رضى الله ورضانا فاجتهد في صلح بين خدامنا الدوائر والزمالة والشيخ ابن الغمارى مع الحاج عبد القادر، لجمع كلمة المسلمين، ويكونوا يدا واحدة على من سواهم». (16)

وتتضح من هذه الفقرة من الرسالة نظرة السلطان المغربي إلى القبائل

16) إتحاف أعلام الناس / ج5، ص: 33.

الجزائرية كقبائل داخلة تحت سلطته، فكلمة (خدامنا) كانت تطلق على أفراد الرعية، كما تتضح رغبة السلطان الأكيدة في جمع شتات زعماء القبائل، الذين دب بينهم النزاع، وينبههم في هذه الرسالة إلى مكائد العدو وحيله في الإيقاع بينهم.(17)

وكان عبد القادر يستشير السلطان المغربي كلما حدث ما يوجب هذه الاستشارة من الأمور الجسام، ومن ذلك استشارته له في شأن إرسال سفير جزائري إلى فرنسا سنة (1254هـ - 1838م)، ومن خلال رسالة السلطان(18) إلى الأمير في هذا الموضوع نلمس روح المودة التي كانت تربط بين الرجلين في هذه المرحلة، حتى أن السلطان يخاطبه قائلا: (محل ولدنا)، كما يبدو أن الأمير استشاره فيما أجراه من أخذ الزكاة من بعض القبائل عن خمس سنين، وقد أمضى السلطان تصرفاته، وحذرهن خداع العدو ومناوراته.

وتدل الرسائل المتبادلة بين الرجلين في هذه المرحلة على أن علاقة السلطان بالأمير كانت تكتسي طابع علاقة سلطان بخليفته،(19) وحتى سنة (1260هـ - 1844م)، كانت هذه العلاقة الحميمة بين الأمير والسلطان لا تزال تحتفظ بدفئها، فقد أرسل الأمير رسالة إلى السلطان بشأن المهاجرين الجزائريين، وفيها يعرب له عن ولائه وإخلاصه، ويعتبر نفسه خادما من خدامه.(20)

وقد وجد المهاجرون الجزائريون(21) الذين فروا بدينهم من بطش الاحتلال الفرنسي في المغرب ملاذا آمنا، وأهلا كراما أوفياء، وحظوا من السلطة المغربية بعناية فائقة، فقد سن لهم السلطان المغربي خمسمائة (مد)(22) من القمح، ومقدارا من المال يسلم سنويا للأشراف منهم، وأصدر

---

17) هناك رسالة أخرى وجهها السلطان إلى الأمير عبد القادر، يحثه فيها على الجهاد، ويوصيه بالصبر والمثابرة، وقد أورد نص هذه الرسالة صاحب الابتسام / ص: 213.

18) انظر: هذه الرسالة بتحفة الزائر / ص: 339.

19) هناك رسالة من الأمير عبد القادر إلى أهل تلمسان، يصرح فيها بأنه خليفة للسلطان المغربي، وهي في ملك الأستاذ محمد المنوني بالرباط، وقد اطلعنا عليها جزاه الله خيرا.

20) انظر هذه الرسالة في (إتحاف أعلام الناس) ج5، ص: 51.

21) يذكر أبو عبد الله محمد السليماني الحسيني في كتابه (زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ) طائفة من العلماء الذين هاجروا من الجزائر إلى مدينة فاس، كما يذكر مجموعة منهم فارقوا الأمير بعد دخوله إلى الأراضي المغربية، والتحقوا بعاصمة السلطان المغربي. (زبدة التاريخ) ص: 253، 254.

22) (المد) في الدارجة المغربية يساوي بالكيلوغرام ستة عشر كيلوغراما تقريبا، ولا يزال هذا المصطلح معمولا به إلى الآن بالمغرب، وهو غير المد المعروف.

توجيهاته لعماله باحترامهم وتوقيرهم، مع إسقاط كل كلفة مخزنية، فلا يطالبون بأية ضريبة أو مغرم أو هدية،(23) وبلغ السلطان في تأنيسهم وتقريبهم أن أسقط على التجار منهم ما كان مفروضا على التجار المغاربة من الضرائب(24)، ووجه السلطان رسائل متعددة إلى عماله في الأقاليم، يوصيهم فيها برعاية هؤلاء المهاجرين وحمايتهم.

من هذه الرسائل، رسالة مؤرخة بتاريخ (1246هـ ـ 1830م)، يوصي فيها السلطان عامله بتطوان قائلا:

«وبعد، فقد وصلنا كتابك مخبرا بورود المركبين الحاملين لأهل الجزائر، ردها الله دار إسلام، وبما أخبر به أهلها عليها وعلى وهران، وما فعل العدو الكافر قصمه الله وخيب سعيه، فكل من ورد منهم قابله بالبشاشة والقبول، وأجبر خواطرهم بالإكرام ولين الجانب، فإن جبر القلوب واجب، وأحرى إخواننا المسلمين الذين قهرهم العدو، واستولى على أملاكهم وبلادهم، وفروا بدينهم، جبر الله حالهم بمنه.(25)

وفي رسالة أخرى بنفس التاريخ يأمر السلطان عامله المذكور بالنظر في أحوال المهاجرين، وتوظيف من له معرفة منهم في الخدمات الحربية(26).

ويأمره في رسالة بتوفير السكن مجانا لمهاجر جزائري، ومده بإعانة مالية(27).

وفي رسائل متعددة يأمره بأداء لوازم السفر إلى تونس عن مواطنين جزائريين مع عائلاتهم، ومدهم بإعانة مالية زيادة على نفقات سفرهم.(28)

وفي سنة (1262هـ / 1845م)، وجه السلطان رسالة إلى خليفته، يوصيه فيها بتوفير السكن لقاضي الأمير عبد القادر، وإعانته بثلاثين مدا من القمح، وتوظيفه لتدريس مختصر خليل.(29)

أما علماء فاس، فقد كانوا وجهة الأمير المسلم، الذي يستقي أحكامه من الدين الإسلامي، يلوذ بهم كلما استعصى عليه أمر من الأمور، أو عنت له مشكلة. ولعله كان يحس في قرارة نفسه بأن الفقهاء أقدر

23) إتحاف أعلام الناس ج5، ص: 123، 124.

24) انظر رسالة ملكية: في هذا الشأن، منشورة بـ: (الوثائق) ج2، ص: 42.

25) انظر رسالة في هذا الشأن، منشورة بـ (الوثائق) ج2، ص: 42.

26) نفس المصدر: ج1، ص: 459.

27) الوثائق: ج1، ص: 462.

28) نفس المصدر السابق / ج2، ص: 64.

29) نفس المصدر: ج2، ص: 53، 62، 65.

على فهمه، وتقدير مجهوداته، وتدعيم ثورته لدى السلطات المغربية.

ففي آخر سنة (1252هـ/1836م)، توجه وفد من الجزائر إلى المغرب يحمل رسالة من الأمير، يستفتي فيها العلماء حول مجموعة من المسائل، وقد استقبل الوفد استقبالا حسنا، وعندما عاد إلى الجزائر، كان محملا بالخيل والمدافع والأدوات الحربية المختلفة، التي بعثها السلطان المغربي معونة للمجاهدين، كما حمل معه الجواب على أسئلة الأمير، وقد تولى الرد الفقيه أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي.

وفي سنة (1258هـ/1842م)، وجه الأمير أسئلة أخرى إلى قاضي فاس عبد الهادي العلوي(30)، يستفسره فيها عن حكم الخونة الموالين للمستعمر، ويثير نقطة حساسة حول العلاقة المغربية الجزائرية، عندما يتناول قضية إعانة المجاهدين العاجزين عن مواجهة العدو، ويتساءل: هل يتعلق وجوب هذه الإعانة بالسلاطين أم بجماعة المسلمين؟(31)

وفي نفوس الجماهير المغربية حظيت ثورة الأمير منذ بدايتها بمنزلة سامية، فقد كانت هذه الجماهير تتابع حركاته باهتمام وحماس لا نظير له، تصفق وتقيم احتفالات شعبية عندما ينتصر، وتسقط عليها هزائمه إذا انهزم كالصاعقة، فتفور عواطفها، وتعود باللوم والعتاب على السلطات، وتتهمها بالتقصير في حق المسلمين الجيران. ولم تبخل هذه الجماهير بالمال والعتاد في حملات الإعانة التي كانت تنظم في المساجد والساحات العامة لفائدة الثورة الجزائرية، حتى كانت المرأة المغربية في القرية والمدينة تنزع ما تتحلى به من أقراط وأساور وخواتم وغيرها من الحلي وتتبرع به لهذه الثورة.

وأحس الجمهور المغربي بعمق الخطر الذي يهدده في احتلال الجزائر، كما كان

30) عبد الهادي بن عبد الله التهامي الحسني العلوي (... ـ 1272هـ) (... ـ 1855م)، من الفقهاء المغاربة المشهورين في عصره، أخذ عن مجموعة من الشيوخ بفاس، وتعاطى للإفتاء، كما تولى منصب القضاء بسجلماسة ونواحيها، وتولى قضاء الجماعة بفاس مرتين: المرة الأولى سنة (1240هـ/1884م)، وعزل، وتولاه مرة ثانية سنة (1247هـ/1831م) بعد عزل الفقيه التسولي، وبقي به إلى أن مات. وقد كان من المقربين لدى السلطان، خصوصا وأنه صاهره بابنته، كما كان من بين الفقهاء الذين أفتوا بعدم قبول السلطان المغربي لبيعة أهل تلمسان بعد احتلال الجزائر.
(انظر: سلوة الأنفاس ومحاضرة الأكياس بين أقبر من العلماء والصلحاء بفاس: محمد بن جعفر الكتاني / ج1، ص: 117 ـ 118).

31) انظر نص السؤال في المعيار الجديد للوزاني / ج 10 ـ ص : 204، وكذلك في تحفة الجزائر / ص: 384.

مدركا تماما للدور الذي بات واجبا عليه تجاه الإخوان المسلمين المستعمَرين من طرف الكفار.

وهكذا أصبحت الدعوة إلى الجهاد، وتأييد المقاومة الجزائرية، موضوع خطب الجمعة في المساجد المغربية، ونغمة الشعراء في المحافل والمجالس. ففي خطبة الفقيه التسولي نحس حرارة الشعور بالمسؤولية التي يفرضها الدين الإسلامي نحو المسلمين الجزائريين، وتلفت النظر هذه اللهجة الشديدة التي يستعملها الفقيه، لاستنهاض هذه السلطات، لمساندة الجيران، ونفس اللهجة نجدها عند الشعراء.(32)

3 ـ المناورات الاستعمارية، وأثرها على العلاقة بين السلطة المغربية والأمير عبد القادر :

لقد اضطر الأمير عبد القادر أمام الاستيلاء الفرنسي على أهم المراكز أن يلجأ إلى الأراضي المغربية، التي لم يجد أية صعوبة تذكر في دخولها سنة (1260هـ/1844م)، فقد كان في حاجة شديدة إلى مركز يواصل منه كفاحه ضد المستعمرين، فنزل مع حاشيته وجنوده قرب وجدة، حيث تهيأ له أن يمارس نشاطه، وينظم غارات ضد العدو كلل أغلبها بالنجاح.

وقد وجد من السكان المغاربة بالمنطقة ترحيبا كبيرا، فلم يبخلوا عنه بشيء في استطاعتهم أن يقدموه، فساعدوه بأسلحتهم وأراضيهم وأنفسهم، حين اركوا متطوعين بين صفوف جنوده.(33)

ولم يسع فرنسا أمام هذا التحول الخطير في تحركات الأمير، إلا أن توجه تهديدا إلى السلطان المغربي تطالبه بإخراج الأمير من الأراضي المغربية، وقد رفض السلطان هذا الطلب بإصرار، فكان رد الفرنسيين هو احتلال «للامغنية»(34). وتدنيس المقام الطيب لدى المغاربة، فوجه السلطان أمرا إلى عامله بوجدة أن يبلغ الفرنسيين الأمر بالارتحال، وحيث لم يجد هذا الأمر آذانا صاغية من طرف المعتدين، فقد وقع أول اصطدام بين الجيش المغربي والفرنسي، تغلب فيه الفرنسيون، مما دفعهم إلى احتلال

---

32) من الشعراء المغاربة الذين اشتهروا بتناول هذا الموضوع الشاعر محمد بن إدريس العمراوي، والشاعر محمد بن عبد الله عزيط الكتاني المتوفى سنة (1280هـ/1863م).
(انظر: مظاهر يقظة المغرب الحديث لمحمد المنوني ج1، ص: 22).

33) انظر رسالته إلى عليش، وفيها يتحدث عن مدى ما حظي به من مساعدة من السكان المغاربة. (فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك) لمحمد أحمد عليش: ج1، ص: 387.

34) اسم منطقة تقع على الحدود المغربية الجزائرية.

مدينة وجدة، وشن غارات على مدينة طنجة، وقصف مدينة الصويرة.

فجهز السلطان المغربي جيشا بقيادة ابنه، والتقت الجيوش بالجيوش المستعمرة بإيسلي، في منتصف شعبان عام (1260هـ/1844م)، حيث انهزم المغاربة، (35) فقد كان الجيش الفرنسي منظما رغم قلة عدده، بينما كان الجيش المغربي الذي بلغ ثلاثين ألف مقاتل جيشا غير نظامي، تكون في أغلبيته بطريقة (الحرارك)، حيث كان السلطان يستنفر القبائل للقتال كلما استدعى الأمر ذلك، فيتجمع جيش بلا تدريب ولا خبرة، وإنما هو جموع بشرية متنابذة تنتظر أدنى فرصة للسلب والنهب، ومقاتلة بعضها البعض بلا رادع.

وقد نقل صاحب الاستقصا صورة للجيش المغربي في هذه الفترة وما قبلها قائلا:

«فالحاصل، أن جيش مغربنا إذا حضروا القتال، وكانوا على ظهور خيولهم، فهم في تلك الحال مساوون في الاستبداد لأمير الجيش، لا يملك من أمرهم شيئا، وإنما يقاتلون هداية من الله لهم، وحياء من الأمير، وقليل ماهم، وقد جربنا ذلك فصح، ففروا من السلطان المولى سليمان(36) في واقعة ظيان أولا، وفي واقعة الشواردة ثانيا، وكان السلطان المولى عبد الرحمان أهيب في نفوسهم منه، فكانوا يلزمون أغرزه(37). لكنه لما بعثهم إلى تلمسان فعلوا فعلتهم، وسلكوا عادتهم، ولما شهدوا مع الخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمان(38) وقعة إيسلي جاءوا بها شنعاء، غربية القبح».(39)

ويبدو أن المغاربة لم يحسبوا حسابا لقوة جيش العدو ولا لتطوره، فساروا لمواجهته بأعداد هائلة من البشر، عزلاء من الدربة والتنظيم، محملين بالخيام والأثاث الفاخر، في أبهة وخيلاء، حتى أن الأمير عبد القادر، الذي كان إلى جانبهم، والذي

35) انظر ما نقله صاحب الابتسام عن هذه المعركة، وكيف انهزم الجيش المغربي، وفر من المعركة، (الابتسام) ص: 219.

36) سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل أبو الربيع (1180هـ/1238هـ ـ 1866م/1822م)من ملوك الدولة العلوية بالمغرب، كان محبا للعلم والعلماء، وله آثار علمية.
(انظر الاستقصا: ج9، ص: 80، 127).

37) اغرزه: ركاب الرحل، وهنا بمعنى جماعته.

38) محمد بن عبد الرحمان بن هشام الحسيني (... /1290هـ ـ ..../1873م) من ملوك الدولة العلوية بالمغرب، تميز عصره بتصعيد في التحرشات الاستعمارية التي استهدفت المغرب، انظر الاستقصا: ج9، ص: 80، 127.

39) الاستقصا: ج9، ص: 97.

أكسبته تجاربه السابقة مع الفرنسيين خبرة ومعرفة بطريقتهم في الحرب، قال لهم: «إن هذه الفرش والأثاث والشارة التي جئتم بها حتى وضعتموها بباب جيش العدو ليس من الرأي في شيء، ومهما نسيتم، فلا تنسوا أن لا تلاقوا العدو إلا وأنتم متحملون منكمشون، بحيث لا يبقى لكم خباء مضروب على الأرض، وإلا فإن العدو متى رأى الأخبية مضروبة لم ينته دون الوصول إليها، ولو أفنى عليها عساكره».(40)

وقد كان لهزيمة إيسلي أثر كبير على المغرب في الخارج والداخل، فقد انكسرت شوكته، وفقد مركزه القديم كدولة قوية الأسطول، شديدة البأس، مهابة الجانب، فامتنعت الدول عن أداء الضرائب التي كانت تؤديها في الماضي(41). واضطر المغرب إلى تنازلات في الميدان التجاري، مما أدى إلى خلق أزمة اقتصادية خانقة.(42)

وكان من آثار هذه الهزيمة أن نشطت أطماع الدول الكبرى في المغرب، الذي بدا بعد هزيمته مضغة سائغة، ولولا النزاع والتنافس الدولي لما استطاع أن يحافظ على استقلاله حتى أوائل القرن العشرين.

وفي الداخل، تملكت المغاربة خيبة أمل كبيرة، وأدركوا ما يعيشونه من ضعف واختلال إداري، وفتحوا أعينهم في دهشة وحيرة أمام عتاد العدو وتمدنه وقوته، مقدرين جسامة الخطب الذي يهددهم، وآمنوا في تسليم بأن هذا العدو المتربص قادر على أن يلحق بهم ما ألحقه بالقطر المجاور، فانداحت في النفوس موجة من الاستياء والخوف، وكان على الأمير عبد القادر أن يجني هو الآخر ثمار هذه الهزيمة المرة، فقد اضطر السلطان أمام هذا الوضع المتردي،(43) الذي أصبح يعيشه المغرب، أن يبرم معاهدة(44) صلح مع الفرنسيين، وكان أهم بند حرصت فرنسا على تطبيقه بإلحاح بلغ درجة المضايقة والتهديد، هو البند الذي ينص على القضاء على نشاط عبد القادر، وكان من الحتمي أن تدخل العلاقة بين السلطان والأمير دورا جديدا لا رجعة فيه، فالسلطان مضطر إلى مهادنة العدو، راغب

40) الاستقصا: ج9، ص: 51.
41) الاستقصا: ج9، ص: 53.
42) نفس المصدر: ج9، ص: 94.
43) انظر ما نقله صاحب الابتسام، عن الفوضى الداخلية التي كانت تجتاح المغرب في هذه الفترة، والتي كانت من أسبابها اختيار المهادنة مع فرنسا.
(الابتسام: ص: 219).
44) انظر بنود هذه المعاهدة في الوثائق / ج1، ص: 465، 469.

في وحدة بلاده وأمنها، ويبدو أنه بات مقتنعا بأن ثورة الأمير لا جدوى منها أمام قوة فرنسا، وأنها مجازفة خطيرة لا تعود إلا بالوبال على سكان الجزائر، بل وعلى المغاربة أنفسهم، وهذا ما تشير إليه إحدى رسائله حيث يقول:

«فإنا نحب نصر الإسلام، وظهور أهله على عبدة الأصنام، ولا نكره ما يحل بهم، ولكنه على وجه لا يكون لهم معه انتصار، ولا يتأتى لهم به دفاع ولا أخذ ثأر، فإن الحاج عبد القادر إنما يصطاد الغرة، ويخطف ما قدر عليه، ويترك المستضعفين في الوبال مع عدو الدين، ويجر الفتنة لهذه الإيالة.(45)

وقد وجه السلطان تحذيرا لعبد القادر، يأمره فيه بالارتحال عن الأراضي المغربية، أو العيش داخل المغرب مع الكف عن مهاجمة الفرنسيين.

ورفض الأمير هذا الطلب، مصرا على متابعة الكفاح، انطلاقا من الأراضي المغربية التي نزل بها، مكونا شبه انفصال عن السلطة المغربية.

ولذلك رأى فيه المسؤولون خطرا كبيرا، وأخذ في نظرهم صفة الراغب في السلطة، والمهدد لأمن البلاد ووحدتها، وهي صفة كافية بأن تجعله مطلوبا في كل مكان، وتجعل القضاء عليه أكثر من مجرد وفاء بالمعاهدة الفرنسية.

وقد عبر المغاربة عن ذلك في كل مرة كانت فرنسا تطالب فيها بتنفيذ بند المعاهدة، فقد جاء في رسالة من الوزير محمد بن إدريس العمراوي في هذا الشأن ما يلي:

«... وكلامه اليوم معنا لا معكم، فإنه استهوى خفاف العقول، وأتاهم من باب الصلاح والدين، ويلبس على غيرهم بأنه ضيف وأخ في الإسلام نزل بساحتهم، وآخر يستنفره بالطمع، ويستهويه بالترهات».(46)

وجاء في رسالة من السلطان المولى عبد الرحمان في نفس الموضوع:

«... مع أن كلامه الآن معنا لا معكم، لأنه أفسد طرفا من إيالتنا السعيدة، واستهواهم، وجعل يدعي لنفسه».(47)

وقد تضاربت الآراء(48) حول نوايا الأمير في هذه الفترة، وفيما إذا كانت له

45) الوثائق: ج2، ص: 108.

46) الوثائق: ج2، ص: 56.

47) الوثائق: ج2، ص: 112.

48) وأشار بعض المؤرخين إلى وجود الأمير المغربي (مولاي عبد الرحمان بن سليمان)، وقتئذ في دائرة الأمير عبد القادر (مما زاد الطين بلة)، فقد أشيع أن الأمير عبد القادر عازم على القيام بالدعوة له ضد السلطان. (انظر : زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ : ص : 263).

لماع في الاستيلاء على الحكم داخل غرب، أم لا.

لاشك أن الظروف التي أفرزتها هزيمة يسلي، إلى جانب ما نصت عليه المعاهدة فرنسية المغربية، دفعت عبد القادر إلى تفكير في الاستقلال بسلطته في المنطقة لغربية التي نزل بها على الأقل، بل إن لاستفتاء الذي وجهه إلى الفقيه عليش(49) عكس نواياه في هذا الشأن، خصوصا ندما يعتبر السلطان في محاربته له متعرضا له، يريد شق عصا الإسلام، تفريق جماعته»(50)، وكان من المنطق يضا أن يدرك المسؤولون المغاربة طبيعة لوضع الجديد، فيجندوا كل قواتهم للقضاء لى حركة الأمير الثائر(51) بشرق المغرب.

وبذلك، استطاع المستعمر بوحشيته ومناوراته أن يخلق من الرجلين اللذين كانا بالأمس في غاية الصفاء والود عدوين، يتربص كل منهما للآخر، وهو موقف لا لوم فيه على أي منهما، فقد كان كل منهما يدافع عن مبدأ مشروع يؤمن به: المولى عبد الرحمان يدافع عن وحدة أراضيه، متجنبا التحرش بالفرنسيين خوفا من الاستعمار، خصوصا بعد هزيمة «إيسلي» المشؤومة، وعبد القادر يواصل نضاله ضد مغتصب وطنه، مؤمنا بأن المغاربة مسلمون، وجيران عليهم أن يعينوه ويساعدوه، قياما بواجب الجهاد، مهما كانت الطرق والوسائل.

فاس ـ الحسن اليوبي

زعم تشرشل في كتابه عن الأمير عبد القادر، أن الأمير قد تلقى في هذه الفترة دعوة من السكان المغاربة لتولي عرش المغرب، يقول: «فقد اتصل عبد القادر برسائل من أعلى المستويات في الدولة، ومن الموظفين العسكريين والمدنيين، ومن الطبقات التجارية، وكلها تخبره بقرار الإدارة العامة، وترجوه أن يأتي لإنقاذ الدولة المغربية من انهيار وخراب محقق، وتدعوه إلى تولي عرش أجداده».

(انظر حياة الأمير عبد القادر: ص: 225).

ولكن تشرشل بعد هذا الكلام لم يشر ولم يثبت أية وثيقة تاريخة تثبت كلامه، ولم يورد ولا رسالة واحدة من تلك الرسائل التي أشار إليها، بل إنه لم يذكر ولا إسما واحدا من أسماء أصحابها. ونحن مع اعترافنا بما كان يكنه المغاربة للأمير عبد القادر من حب وتقدير له كمجاهد مسلم، نستبعد وقوع ما أشار إليه تشرشل، خصوصا وأنه لم يسنده بأي دليل ملموس يجعل منه كلاما مقبولا.

49) محمد بن أحمد بن محمد عليش، أبو عبد الله (1218هـ / 1299هـ ـ 1802م / 1882م)، فقيه مغربي الأصل، ولد بالقاهرة، وتعلم بالأزهر الشريف، وولي مشيخة المالكية فيه. من مؤلفاته: (فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك) جمع فيه فتاويه.

(انظر: الأعلام: ج6، ص: 244).

50) انظر هذا الاستفتاء في (فتح العلي المالك): ج1، ص: 389.

51) من المؤرخين المغاربة الذين اعتبروا الأمير عبد القادر (ثائرا)، اللجائي في كتابه: (المفاخر العلية والدرر السنية في الدولة العلوية): ص: 229.

الشروح الشعرية بالمغرب نشأة وتطور

للدكتور عبد الجواد السقاط
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالمحمدية

إن المتأمل في عملية الشروح الشعرية بالمغرب، ينتهي ولاشك إلى أنها تتميز بالخصوبة والتنوع، وأنها تمزج في مادتها بين الإنتاج المغربي والعربي بوجه عام،(1) ذلكم المزج الذي يمنح هذه الشروح خصوصية متفردة، ويسلكها في مجال متسع يدعو إلى شيء غير قليل من الاهتمام والبحث.

وإذا كانت هذه الحقيقة ثابتة لا جدال حولها، فإن ما يهمنا في البحث أن نعرض لنشأة هذه الشروح، وتطورها عبر العصور المتلاحقة، وكذا الأهمية التي تحظى بها باعتبارها تشكل مصدرا مهما من مصادر الأدب المغربي، ووجها بارزا من وجوه التعامل مع النصوص الابداعية في أغراض شتى.

○ نشأة الشروح:

عندما نحاول حصر نشأة الشروح الشعرية بالمغرب - بمعناها التصنيفي - نستطيع أن نرجعها إلى أواخر العصر الموحدي وأوائل العصر المريني، انطلاقا مما استطعنا الوقوف عليه من إشارات أو عناوين مبثوثة في مظان مختلفة، إذ تطالعنا في هذه الحقبة شروح نجدها مرتبطة إذ ذاك بأحد اتجاهين اثنين:

أحدهما: الاتجاه الذي يرمي إلى خدمة الدين الإسلامي، وذلك عن طريق الوقوف

(1) انظر مقالنا بعنوان: «مدخل إلى الشروح الشعرية في الأدب المغربي»، مجلة دعوة الحق، عدد 286/ صفر - ربيع I - ربيع II - 1412هـ موافق شتنبر - أكتوبر 1991م.

على متون فقهية أو صوفية أو ما إليها مما يدخل في المجال الديني، والتعامل معها تعاملا يفضي إلى بلورة القيم الإسلامية التي يسعف بها المتن المشروح، وإبراز النفحات الصوفية التي يعكسها ويحويها، مثال ذلك:

* «اللآلي الفريدة في شرح القصيدة» لمحمد بن الحسين الفاسي (ت: 656 هـ) وهو شرح على القصيدة الشاطبية المشهورة في القراءات والتجويد(2).

* «فرائد المعاني في شرح حرز الأماني ووجه التهاني» لمحمد بن محمد ابن داوود الصنهاجي المعروف بابن آجروم (ت: 723هـ)، وهو شرح على قصيدة أبي القاسم الشاطبي في القراءات كذلك(3).

وثانيهما: الاتجاه الذي يرمي إلى خدمة اللغة العربية، وتمكين الإنسان المغربي منها، باعتبارها لغة القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، ونذكر من نماذج ذلك: «شرح أبيات سيبويه» لأبي زكريا يحيى الزواوي(4) (ت: 628هـ).

ويبدو هذان الاتجاهان معا مستقيين من مجموعة عوامل، سواء منها ما كان داخليا أو ما كان خارجيا، تظافرت فيما بينهما ولاشك، لتخلق هذا النهج الجديد إذذاك في التعامل مع الشعر، والربط بينه وبين الإسلام واللسان العربي الذي جاء به.

وقد نكتفي من هذه العوامل بالإشارة إلى:

أ ـ التوجه الذي عرفته عملية الشروح الشعرية في القرنين الأولين للإسلام بالمشرق، ذلكم التوجه الذي كانت فيه عملية الشروح وجها من وجوه البحث العلمي الذي تنوعت أضربه خدمة للنص القرآني، وكذلك اللغة العربية.

ولاشك أن الاتصال الذي كان قائما بين المشرق والمغرب قد كان سببا في تأثر المغاربة بشراح المشرق، ومحاولتهم السير في ركابهم، خاصة وأن بعض شروحهم الشعرية كانت من بين الكتب المتداولة في حلقات الدرس بالمغرب، والمصنفات التي يقرأها التلامذة عن شيوخهم فيها،

---

2) ذكره د. عباس الجراري في: «الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي». دار الثقافة. الدار البيضاء 1394هـ / 1974م، ص71.

3) ذكره د. محمد بنشقرون في: «الحياة الفكرية المغربية على عهد المرينيين والوطاسيين» (باللغة الفرنسية). مطبعة محمد الخامس. فاس 1394هـ / 1974م، ص.209.

4) الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، ص.79.

ويتدارسون قضاياها ومحتوياتها، كما تشهد بذلك كتب البرامج والفهارس المغربية المختلفة.

ب - الممارسة الأندلسية في مجال الشروح، خاصة وأن الوحدة بين المغرب والأندلس منذ العهد المرابطي إلى العهد المريني، قد أتاحت تمازج الاهتمامات العلمية والأدبية بين المنطقتين، كما أتاحت فرص التلاقح والتأثر بين علمائهما وأدبائهما، وفي مستويات متعددة، من بينهما مستوى الشرح، سواء كان المتن المشروح شعرا أو نثرا.

وعلى سبيل المثال نشير ضمن خدمة الدين الإسلامي إلى:

* «شرح شواهد نزهة القلوب في غريب القرآن» لمؤلفه أبي بكر بن محمد عزيز، وهو شرح وضعه أحمد بن عبد الجليل التدميري أحد علماء الأندلس، والذي وفد على المغرب، وتوفي بمدينة فاس عام 555هـ(5).

وضمن اتجاه خدمة اللغة العربية نشير إلى:

* «شرح أبيات الإيضاح» لعلي بن عصفور الاشبيلي (ت: 670هـ)، وهو كذلك من علماء الأندلس الذين وفدوا على المغرب(6).

ج - وجود شروح وضعها أصحابها على متون نثرية تخدم هذا الاتجاه أو ذاك من الاتجاهين سالفي الذكر، سواء كان أصحابها مغاربة أو كانوا أندلسيين أقاموا بالمغرب. ولعل هذا الوجود قد مهد الطريق أمام متون شعرية تتابع بها المسيرة، ويتعامل معها على غرار المتون النثرية، وخاصة منها مقامات الحريري التي شرحها أكثر من واحد.

نذكر منهم من الأندلسيين:

- أحمد بن عبد المومن القيسي (ت: 619هـ)، وقد أقام بالمغرب زمانا(7).

ومن المغاربة نذكر :

- أبا القاسم الزيات (ت: 665هـ)(8).
- محمد بن سعيد الرعيني (ت: 778هـ)(9).

---

5) «الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام»: للعباس بن إبراهيم السملالي، المطبعة الملكية، الرباط 1974، ج.2، ص.69.

6) «الإعلام بن حل مراكش وأغمات من الاعلام»، المطبعة الملكية، الرباط 1400هـ / 1980، ج.9، ص.136.

7) «الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام»، ج.2، ص.133.

8) «النبوغ المغربي في الأدب العربي» لعبد الله جنون، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ج.1، ص.161.

9) «الحياة الفكرية المغربية على عهد المرينيين والوطاسيين»، ص.279.

د ـ تشجيع بعض الخلفاء المغاربة على ئروح التي تخدم الدين أو اللغة، فقد اء في إعلام العباس بن إبراهيم حول علي ـن محمد بن خروف الاشبيلي (ت: 60هـ) قوله:

«ورفع إلى الناصر من بني عبد المومن ـسخة من (شرح كتاب ـيبويه) بخطه في أربعة جلدات، فأثابه عليه بأربعة آلاف رهم»(10).

ولعل هذا السلوك يصدر عن هذا لخليفة يمكن توقع مثله من غيره من الخلفاء، وإن لم تفصح لمصادر بذلك.

هـ ـ على أن هناك عاملا خامسا يمكن إدراجه في هذا المجال، ويتعلق الأمر بارتباط الشروح الشعرية بعملية التدريس، إذ أن العلماء كانوا يلقون دروسهم سواء في رحاب المساجد أو غيرها، فيشرحون متونا من بينها ما هو شعر، ويدونون هذه الشروح، أو يملونها على تلاميذتهم يدونونها نيابة عنهم.

ولعل هذه الأمالي ــ وهي في المغرب امتداد لما كان عليه الأمر في المشرق والأندلس كذلك ـ تعتبر مظهرا من مظاهر التصنيف العلمي والأدبي ببلادنا، وفي اتجاهات شتى من بينها اتجاه الشروح الشعرية التي هي مدار بحثنا هذا.

و ـ وقد نضيف عاملا سادسا، ويتعلق خاصة بخدمة اللغة العربية، هذه اللغة التي وصلت إلى البلاد المغربية مع الفتح الإسلامي، والتي احتاجت ولاشك إلى قيام حركة لغوية تسعى إلى تقريبها من الإنسان المغربي، وربطه أكثر بهذه اللغة التي لم تزل تزاحمها إذ ذاك اللغة الأمازيغية. ولعل لهذا السبب وجدنا المتون الشعرية التي شرحها المغاربة في بداية الأمر من إنتاج المشارقة خاصة ـ وكذا الأندلسيين ـ حيث اللسان العربي الفصيح، حتى تؤخذ هذه المتون ومثيلاتها نماذج تستقى منها اللغة العربية الفصحى، وتلتمس لديها الصياغة السليمة والعبارة الفصيحة.

هذا إلى جانب السعي نحو تقعيد بعض المفاهيم الأدبية، وحصر بعض الأدوات الشعرية، كما يدل على ذلك:

* وصل القوادم بالخوافي في ذكر أحكام القوافي لابن رشيد السبتي (ت: 721هـ)(11) وهو شرح لقوافي شيخه حازم القرطاجني.

---

10) «الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام»، ج.9، ص.64.

11) ذكره عبد العزيز بن عبد الله في مقال بعنوان: «الشعر والشعراء بالمغرب الأقصى»، مجلة دعوة الحق، عدد 276، صفر الخير 1410هـ / شتنبر 1989م، ص.47.

ويبدو أن هذين الاتجاهين ــ خدمة الدين الإسلامي وكذلك خدمة اللغة العربية - قد رافقا عملية الشروح الشعرية بالمغرب في المرحلة الموالية لمرحلة النشأة، وعند أكثر من شارح.

ويتضح لنا ذلك من خلال زاويتين اثنتين:

أولاهما: جانب الممارسة الفعلية التي ترتبط بهذين الاتجاهين، ونقتصر للتدليل على ذلك من الفترتين المرينية والسعدية في المجال اللغوي على:

● أحمد بن محمد الدقون الفاسي (ت: 921هـ)، الذي وضع شرحا على شواهد الشريف شارح الآجرومية سماه «بداية التعريف في شرح شواهد الشريف»(12).

وفي المجال الديني على :

● محمد بن أحمد بن مرزوق (ت: 781هـ) صاحب «إظهار صدق المودة في شرح البردة»(13).

● عبد الرحمان الجادري الفاسي (ت: 818هـ) شارح البردة كذلك(14).

ومن العصر العلوي نقتصر في المضمار اللغوي على :

● محمد بن عبد القادر الفاسي (ت: 1116هـ) شارح شواهد ابن هشام(15).

● ابن الطيب الشرقي (ت: 1170هـ) شارح:

* شواهد الكشاف(16).

* شواهد البيضاوي(17).

* شواهد التوضيح(18).

* شواهد التلخيص(19).

ونقتصر في المضمار الديني والصوفي على:

● علي بن محمد بناصر الدرعي الذي شرح قصيدة لامية لوالده في التصوف تعرف بالوسيلة(20).

● محمد المكي الناصري (توفي بعد 1170هـ)، صاحب «البرق الماطر في شرح النسيم العاطر»، وهو شرح على قصيدة في القطب أحمد بن محمد بن ناصر بعنوان

---

12) «النبوغ المغربي»، ج.1، ص.220.

13) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 1713د.

14) مخطوط بخزانة القرويين بفاس رقم 643.

15) «النبوغ المغربي»، ج.1، ص.305.

16) 17) 18) 19) «النبوغ المغربي»، ج.1، ص.304.

20) «الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية» للدكتور محمد الأخضر، دار الرشاد الحديثة، البيضاء 1977، ص.88.

«النسيم العاطر في مدح القطب أبي العباس بن ناصر»(21).

وثانيتهما: جانب الالحاح من الشارح نفسه على هذه العلاقة القائمة بين الشرح الذي يضعه وبين خدمة كل من الدين واللغة، وهو إلحاح قد يقصد به صاحبه إلى تبرير إقدامه على شرح متن شعري، وتأكيد اعتبار هذا الشرح ليس غاية في حد ذاته، وإنما هو أداة يتوصل بها الشارح لإشباع نهمه الديني أو اللغوي على السواء.

ونكتفي في هذا المجال بإيراد عبارة لمحمد بن زاكور الفاسي (ت: 1120هـ) قدم بها لشرحه على لامية العرب إذ قال: «فإن معرفة كلامهم(22) وسيلة إلى معرفة كلامه(23) وما أنزل الله وسبب، فكان لذلك من أعظم الوسائل وأَجَلِ القُرَبِ، فلذلك شرحت لامية العرب»(24).

○ تطور الشروح:

وإذا كانت الشروح الشعرية بالمغرب قد بدأت مبكرة كما أسلفنا، فإنها أخذت مع امتداد العصور في التكاثر والنمو، وخاصة في القرنين الهجريين الحادي والثاني عشر، إذ أصبحنا نجد أنفسنا أمام مجموعة واسعة من الشراح، يتعاملون مع المتون التي يشرحونها، إما من منطلق الاتجاهين اللذين حددناهما من قبل، كما تدل على ذلك مثلا شروح بردة البوصيري وهمزيته، ومقصورة المكودي(25)، أو من منطلقات أخرى جديدة يمكن أن نتبينها كالتالي:

□ منطلق يستهدف غاية لغوية تعليمية، يرمي صاحبه إلى جعل فهم المتن الشعري سهلا ميسرا، وخاصة إذا كان الشارح معتقدا صعوبة النص، أو قصور القراء عن فهمه وإدراك أسرار لغته. ومن هذا القبيل شرح الحسن بن مسعود اليوسي (ت: 1102هـ) لداليته في مدح شيخه محمد ابن ناصر الدرعي(26)، إذ طرح أمامنا مقدمة أوضح فيها سبب وضعه لهذا الشرح قائلا:

---

21) نفس المرجع، ص.266.

22) الضمير يعود على العرب.

23) الضمير يعود على الرسول ﷺ.

24) «تفريج الكرب عن قلوب أهل الارب في شرح لامية العرب»، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 157د، الورقة 59.

25) انظر مقالنا : «مدخل إلى الشروح الشعرية في الأدب المغربي». مجلة دعوة الحق، عدد 286/ صفر ـ ربيع I ـ ربيع II ـ 1412هـ موافق شتنبر ـ أكتوبر ـ نونبر 1991م.

26) سمى هذا الشرح : «نيل الأماني في شرح التهاني».

«فقد كنت سنة سبع وسبعين قلت قصيدة أمتدح بها شيخنا الرباني وأستاذنا العرفاني، أوحد زمانه في العلم والدين، وشيخ أوانه في تربية المريدين، سيدنا أبا عبد الله محمد بن ناصر الدرعي، متع الله بوجوده، وأسبغ عليه وعلينا سوابغ جوده، وأهنيه بمقبله من حجته الثانية، فرأيت كثيرا من رواتها تنبو أفهامهم عنها، ويستغربون كثيرا منها، فيعدون منها الدهش (تحير ووله مع شدة اللذة من سياقها الأنيق المطرب) ضرسا (صعبا)، والسلس (السهل اللين المنقاد من معانيها ومبانيها) شكسا (صعبا عسيرا). وما ذلك إلا لعموم الغباوة والجهل على أبناء الدنيا، وتقاصر هممهم عن العلوم، ولا سيما علم اللسان، فأردت أن أصنع تقييدا مختصرا يبين لحفاظها ما عسى أن يشكل من ألفاظها، غير متصد لتقدير معانيها، وتحرير ما لم يكن عنه بد من مبانيها، إذ ذاك يتسع ويطول، ويفتقر إلى أزمان وفصول»(27).

وقد يلتقي هذا المنطلق التوضيحي مع الاتجاهين السابقين في شرح واحد، إلى جانب اعتبار المتن الشعري ديوان العرب، ومجمع مفاخرهم ومناقبهم، الشيء الذي يوجب شرحه وتوضيح غوامضه وأسراره، على غرار ما نلمسه من المقدمة التي صدر بها سعيد الماغوسي (ت: 1016هـ) شرحه لـ (لامية العرب)(28) إذ جاء فيها قوله:

«...وبعد، فلما كان الشعر ديوان العرب، والترجمان المفصح عما لهم من الأدب، والصوان الحافظ لمآثرهم، والسلك الجامع لمفاخرهم... وكان الفحص عن غرر حقائقه، والغوص عن درر دقائقه، مطمحا لأعين الفضلاء، ومسرحا لأفهم الأذكياء، لاسيما شعر العرب العرباء... اخترت من بين قصائدهم لامية العرب، وتتبعت أبياتها بشرح يبلغ منها أقصى الأرب، لأن ألفاظها أصبحت من الهجران في غداة قرة، ومعانيها باتت من عدم الاعتناء بايلة جرة، والذي دعاني إلى ذلك غرضان سيان:

أحدهما: ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه حض على تعليمها وتحصيلها، ونص على تقديمها وتفضيلها.

والثاني: أن أسعفت طالبيها بقواعد تصريفية في فصول لغوية أمهدها، وأتحف قاصديها بفوائد نحوية في عوائد معنوية أسردها، لعلمي أن فهم كلام الله لا يتيسر على الوجه الأحكم، ولا يتبين معناه على الطريق الأقوم، إلا بمعرفة دقائق اللغة

---

27) «نيل الأماني»، دار العلم للجميع، ص.2.

28) سماه «إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب».

والإعراب، والاحاطة بما يوجد من النكت في كلام الأعراب» (29).

□ منطلق يستهدف تقديم بديل عن الشروح السابقة لنفس المتن، وكأن الشارح هنا يتحول إلى متذوق ناقد، لا يرتاح إلى ما وضعه أسلافه من شروح حول متن معين، فيأخذ البادرة، أو يتلقى الدعوة لوضع بديل يكون أحسن من سابقه، ويشفي غليل المتأمل المتبصر.

وفي هذا المضمار، نعود مجددا إلى الماغوسي المتقدم، لنقتطف مقطعا من الخطبة التي صدر بها شرحه لـ: (لامية العجم) (30)، يقول فيه: «...وبعد، فإن القصيدة اللامية المنسوبة إلى... الطغرائي... اشتمل عقدها من نفيس المعاني على درر مكنونة، وانتظم في سلكها جواهر من عيون اللطائف كانت عن أيدي الابتذال مصونة، مع الجزالة والحلاوة في اللفظ والمعنى، ورقة انسجام تزيل كربه عن المعنى... بيد أن شارحيها لم يشفوا غليل المتأمل، فمن مقصر مخل، ومن مطول ممل، فأشار من تتعين علي طاعته (31)، ولا يسعني مع الأدب مخالفته، عند قراءتها عليه، وتصحيح ألفاظها لديه، بأن أضع عليها شرحا يكشف القناع عن وجوه محاسنها، وإبراز أسرارها المحتجبة في مساكنها، فلبيت دعوته بقدر الاستطاعة، وإن كنت فيما يحتاج إليه مزجى البضاعة، وأمليت عليها إملاء يشيد مبانيها، ويوضح بعون الله ما انبهم من معانيها، مؤثرا لما يلائم طبع المتأمل من المعاني اللطيفة، متجنبا لما يعده المنتقد من المباحث السخيفة» (32).

□ منطلق يستهدف تصحيح أخطاء النساخ لشروح معينة، كما نصادف مثلا عند التهامي الشفشاوني في شرحه لـ: (لامية العجم)؛ فقد جاء في مقدمة هذا الشرح قوله عن شرح صلاح الدين الصفدي لهذه القصيدة: «فألفيت الناسخ له في أكثر مجاله، يحرف الكلم عن مواضعه...» إلى أن يقول: «طمحت نفسي أن تثني عنان العزم إلى اختصاره، وتلتقط دررا نفيسة من لألاء بحاره... مقتصرا على ما سلم من تحريف نساخه» (33).

---

29) «إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب». تحقيق وتقديم: (محمد أمين المؤدب) القسم الأول، ورقة: 1 ـ 3. (مرقون بخزانة كلية آداب الرباط).

30) سماه «إيضاح المبهم من لامية العجم».

31) هو السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي.

32) «روضة الآس»، ص.232 ـ 233.

33) شرح لامية العجم للشفشاوني، المسمى «إحياء النسم، بنسيم الزهر، الذي أرج وبسم، من أفنان دوحة لامية العجم» (المخطوط غير مرقم).

□ منطلق يستهدف الوقوف عند القيمة الأدبية للمتن المشروح، وذلك عن طريق الغوص في القضايا النحوية واللغوية والبلاغية والفنية عموما، إلى جانب توضيح المعاني وتذوقها، ومن هذا القبيل الشرح الذي وضعه محمد الصغير اليفرني (ت: بعد 1155هـ)، على موشحة ابن سهل الإسرائيلي(34)، إذ نجده يقول في مقدمة هذا الشرح:

«طلب مني بعض من اتخذ ترداده وردا،(35) وارتوى من زلال معانيه المترقرقة على صفا ألفاظه وردا، وجعله في ساعة الفرح تيمية من الترح، أن أكتب عليه ما يوضح غامض معانيه، ويأخذ بمجامع قلب معانيه، ويسفر عن وجوه لطائفه، مسدل الحجاب، ويدير على حفاظه من سلافه كؤوس الإعجاب... فلما رأيت أنه لابد من صنعا(36)، أجبتهم وإن كنت لا أحسن صنعا»(37).

□ منطلق يستهدف الوقوف عند مضمون المتن المشروح، لا لتوضيح لغته وأسرار صياغته، ولكن لتوضيح مضامينه ومحتوياته، باعتبارها تمثل نوعا من الجدة والطرافة، أو تمثل جانبا من جوانب الحياة الإنسانية يستوجب شيئا من العناية والدرس. وفي هذا المجال نشير اختصارا إلى:

* «الفريد في تقييد الشريد» لأبي القاسم بن عبد الجبار الفجيجي (ت: 1021هـ)، وهو شرح وضعه على قصيدة عمه إبراهيم الفجيجي المشهورة بالصيدية، والتي سماها صاحبها «روضة السلوان»، تعرض فيها لعملية الصيد بكثير من الجزئيات والتفاصيل(38).

○ أهمية الشروح:

وإذا نحن حاولنا الوقوف عند أهمية الشروح الشعرية بالمغرب، أدركنا أنها أهمية تتظافر في تأكيدها عناصر متعددة نوجزها في ما يلي:

1) تعتبر الشروح الشعرية بالمغرب مصدرا مهما من مصادر الأدب المغربي عامة، والشعري منه خاصة، إذ أنها وجه من وجوه المصنفات العديدة التي وضعها

---

34) سماه: «المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل».

35) الضمير يعود على موشح ابن سهل.

36) اقتباس من قول الراجز:

لابد من صنعا وإن طال السفر
وإن تحنى كل عود ودبر

(انظر لسان العرب، مادة: ص ـ ن ـ ع).

37) «المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل». تحقيق محمد العمري. (مرقون بخزانة كلية آداب الرباط).

38) توجد نسخ مخطوطة لهذا الشرح بالخزانة العامة بالرباط، منها واحدة تحت رقم: 4198.

لمغاربة في شتى أنواع المعرفة، والتي يرجع
ليها الباحث اليوم، ليستخرج منها
جموعة من النصوص الإبداعية:
كمصنفات التاريخ، والتراجم، والرحلات،
وغيرها لا داعي إلى بسطها هنا(39).

ومن ثم، فإن هذه الشروح تكون مادة
ساسية لا يستغني عنها الدارس المتتبع،
لا يمكن إلا أن يعدها مصدرا لا تقل
هميته عن الدواوين والمجموعات وما إليها.

هذا علاوة على ما يقف عليه الباحث
فيها من تراجم الأدباء والشعراء، وما يمكن
ن يخرج به من تصور عن البيئة المغربية
في حقبة ما من الحقب، سواء كان ذلك من
لوجهة الثقافية أو الاجتماعية أو غيرها.

2) تمثل هذه الشروح الثقافة
لموسوعية للشراح، تلكم الثقافة التي تتميز
باتجاهات عدة منها الديني والتاريخي
واللغوي والأدبي... إذ تجمع هذه الشروح
بين المادة التاريخية واللغوية والدينية
والفقهية والأدبية التي كان الشارح
متسلحا بها، والتي تبرهن على سعة هذه
الثقافة عنده، وشموليتها التي تضرب في
أكثر من اتجاه. ولعلنا نلمس هذه الظاهرة
في العديد من الشروح الشعرية، وخاصة
منها ما صدر عن شراح القرنين الحادي
والثاني عشر الهجريين، أمثال اليوسي، وابن
زاكور، واليفرني وغيرهم...

وليس بدعا أو غريبا تكشف الشروح الشعرية عن الثقافة الموسوعية لأصحابها، طالما أن مصادر هذه الثقافة متنوعة متعددة، كما تشهد بذلك كتب الفهارس والبرامج، وكذلك الإجازات التي كانت تصدر عن الشيوخ في حق من نبغ من تلامذتهم، واستووا علماء مشاركين متصدرين للتدريس والتصنيف، وأيضا طالما أن عملية التصنيف لدى المغاربة عموما، ـ وأيا كان الموضوع الذي تتجه إليه ـ كانت تتميز بالتنوع والتعدد، ولم يكن المصنف يقتصر علي ما يتصل بموضوع التصنيف فحسب، وإنما يستطرد في المصنف الواحد إلى مجموعة من المواضيع والقضايا التي تمثل سعة أفق المؤلف، وتزاحم الأفكار والقضايا على ذهنه أثناء عملية التأليف.

ومن هنا جاءت الشروح الشعرية بدورها وجها من وجوه هذا التزاحم، وضربا من الممارسة التصنيفية التي طبعت المؤلف المغربي في كافة المجالات ـ أو معظمها ـ وعلى امتداد المسيرة التاريخية التي عرفتها الساحة التصنيفية ببلادنا.

3) تعتبر هذه الشروح، ـ إلى جانب كونها مصدرا للنصوص والتراجم أحيانا ـ مصدرا مهما، يطلع منه الباحث على مسيرة النقد الأدبي بهذه الربوع، سواء

(39) بسطنا القول فيها في بحث بعنوان: «مصادر الأدب المغربي ومراكزها» هو الآن قيد الطبع بمجلة المناهل.

كان هذا النقد انطباعيا أو تطبيقيا، أو كان جملة من المواقف والآراء النقدية التي تسعى إلى وضع بعض من القواعد والأسس، وسواء أيضا أصدر هذا النقد عن الشارح باعتباره يتعامل مع متن لغيره من الشعراء والأدباء، أو باعتباره يتعامل مع أحد متونه هو بصفته شاعرا مبدعا.

وسنكتفي هنا، بما ورد في المقدمة التي صدر بها الحسن اليوسي المتقدم شرحه لداليته في مدح شيخه الدرعي، إذ نجده يطرح بعض انطباعاته النقدية على هذه الدالية، وإن كانت انطباعات أقرب إلى التقريظ والتنويه، منها إلى النقد الذي يستنبط محاسن المتن ومساوئه كذلك، ولا يقتصر على الجانب الأول دون الثاني.

يقول اليوسي في هذه المقدمة:

«فإن القصيدة بحمد الله تعالى من بركة الممدوح بها، قد اشتملت من العلم على أنواع، في كل منها مجال رحب للركض (استحثات الفرس للعدو وتحريك الجناح) والإيضاع (الإسراع في السير).

فمن فنون العرب ثمانية: النسيب والأمثال والحكم والوصايا والوقائع والمديح والاستعطاف والتهنئة.

وفيها غير ذلك: كالأوصاف والافتخار، وسير المطايا، ونحو ذلك.

ومن فنون التصوف أربعة : الوعظ، وشرح الملكة الإنسانية، وآداب السلوك، ومنازل السالكين، إلى ما يتبع ذلك كنسب الطريقة، وصفة القدوة، ونحو ذلك. وفيها مع ذلك جملة وافرة من اللغة ينتفع بها حفاظها.

هذا إلى ما احتوت عليه من براعة المطلع، وحسن التخلص، والانتهاء إلى ما ركبت عليه من ضروب البلاغة، وما دبجت عليه من أفنان البديع، وكل ذلك بحمد الله تعالى على أبلغ وصف وأبدع رصف، وحسبك منها أنها قد طالت إلى نحو خمسمائة بيت وأربعين بيتا، ولا يوجد فيها روي مكرر، ولا ضرورة تستنكر. وإذا تأمل ذلك كله وغير ذلك من محاسنها اللبيب المنصف، عدها كرامة من كرامات الشيخ الممدوح بها، فإني والله ليس لي فيها قوة ولا حول، وإنما هي نفحة من نفحاته، وبركة من بركاته...

ومن محاسنها أن نسيبها جار على أسلوب معظم القدماء، من بكاء منازل الأحباب والأثر على التحقيق لا على مجرد الفرض، كما هو حال معظم المحدثين(40).

الرباط ـ عبد الجواد السقاط

---

40) «نيل الأماني»، ص. 2 ـ 3.

إطلالة على التصوف المغربي وتاريخه

(3)

للأستاذ محمد علي بن الصديق

*** دور الزوايا بالمغرب في جهاد الأعداء ورد غزواتهم :**

ما إن هاجم البرتغال والإسبان شواطئ المغرب، واحتلوا بعض مدنه الساحلية، حتى ظهر فضل التصوف مرة أخرى ممثلا في الزوايا، في بعث حركة الجهاد والمقاومة، وقيادة الأمة لطرد العدو عنها في معارك ظافرة، انتهت بطرد البرتغال عن الشواطئ الجنوبية، وإيقاف زحفه في الجهات الشمالية، وبتنصيبهم الشرفاء السعديين ملوكا على المغرب.

يقول أحمد الناصري: (1)

«لما كانت ثمان وخمسين وتسعمائة، أمر السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ بامتحان أرباب الزوايا المتصدرين للمشيخة خوفا على ملكه منهم، لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند إشارتهم. ألا ترى أن بيعة والده أبي عبد الله القائم لم تنعقد إلا بهم ولا ولج بيت الملك إلا من بابهم،...» إلى آخر كلامه.

وشاهدنا منه تصريحه بأن السعديين إنما قاموا على يد أصحاب الزوايا، وحين تأسست الدولة السعدية، شاركوا بنصيب وافر فيما قامت به من جهاد ضد العدو، سواء في الشمال أو الجنوب، ولاسيما في وقعة وادي المخازن، التي شارك فيها كثير من شيوخهم وأتباعهم، مثل: سيدي يوسف الفاسي (ت : 1013هـ)، وسيدي محمد بن علي بن ريسون، وغيرهما، وأبلوا فيها البلاء الحسن كما هو معروف.

وما أن عاد المغرب إلى الانقسام والضعف، إثر وفاة أحمد المنصور الذهبي

(1) الاستقصا: ج5، ص: 26، ط 1955م، دار الكتاب الدار البيضاء.

(1012هـ)، بسبب تنازع أبنائه على الملك، حتى عادت أطماع العدو في البلاد، وأخذت إسبانيا تغير عليها، وتحتل بعض المدن الساحلية. وكانت السلطة المركزية بمراكش مشغولة بأمر نفسها، وعاجزة عن الدفاع والوقوف في وجه العدو، بل نرى أحد أبناء المنصور وهو المأمون يتواطأ مع العدو، ويتنازل لإسبانيا عن العرائش في مقابل نصرته وإمداده بما هو في حاجة إليه، فتصدى رجال الزوايا من جديد للقيام بأعباء الجهاد، وانحصر أمره فيهم، حتى أطلق الأوربيون على هذا العصر «عصر الزوايا».

وهكذا قامت إمارة الشيخ العياشي بسلا، وإمارة الزاوية الدلائية بتادلة وفاس ومكناس وناحيتهما، وإمارة أبي حسون السملالي المعروف ببو دميعة من ذرية الشيخ سيدي أحمد بن موسى بسوس وناحيتها، فاضطلعوا جميعا بأعباء الجهاد ورد عادية العدو. وكان لهم في الإيقاع بالعدو ونكايته ما يعرف بالوقوف عليه.

إلى ما قاموا به أخيرا من تنظيم عدة حركات ضد الاحتلال الفرنسي والإسباني، ولم تحظ إلى الآن بمن يؤرخها، ويحقق في أمرها، شأن سابقاتها، ولو وجدت من يعنى بها لكانت صفحة جديدة مشرقة من تاريخ التصوف ورجال الزوايا الطويل في ميدان الجهاد والكفاح الوطني.

إلى ما قام به الأمير عبد القادر محيي الدين بالجزائر، وهو مغربي الأصل، وابن زاوية مشهورة بنواحي تلمسان. وبسبب مركز أبيه وزاويته انتدبه أهل تلك البلاد إلى القيام بالجهاد ضد الاحتلال الفرنسي، ورغبوا إليه أن ينظم حركاتهم، ويبايعوه على الطاعة. فقاد الجهاد ضد المحتل الفرنسي لمدة 17 سنة، إلى أن اضطر إلى الاستسلام بعوامل الغدر والخيانة.

والعالم يذكر باعتزاز ما قام به الشيخ محمد بن علي السنوسي (تـ : 1276هـ)، صاحب الطريقة السنوسية المشهورة في مجموع بلاد إفريقيا، من جهاد للطليان في طرابلس، جهادا أقض مضاجعهم، وكبدهم من الخسائر ما لا يحصى. وكانت ثورته مع ثورة الأمير عبد القادر الجزائري، وثورة الأمير عبد الكريم الخطابي بالمغرب، من أعنف وأشد ما عرفه الإستعمار من مقاومة الشعوب الإسلامية لسيطرته.

قال المؤرخ الإنجليزي المعاصر (روم لاندو):(2)

«إن الطرق الصوفية من الملامح المهمة في التاريخ المغربي، وثمة وثائق تدل على ازدهارها منذ القرن الحادي عشر الميلادي، (الخامس والسادس للهجرة). وزوايا هذه

2) تاريخ المغرب في القرن العشرين ص: 39.

الطرق كثيرا ما كانت تستعمل بالإضافة إلى كونها مراكز نشاط ديني، مدارس وملاجىء وبيوتا لعمل الخير على نحو ما كانت تقوم به الأديرة في أوروبا في العصور الوسطى. وقد كان الدين بطبيعة الحال وثيق الاتصال دوما بالحياة اليومية لكل مغربي، إنه حياته وليس مجرد أمور ثانوية. ومن ثم لم تلبث الطرق الدينية أن أخذت تقوم بدور هام في الحياة الوطنية، وثمة بضعة من الأسر الذين أنشأوا الأسر المغربية الحاكمة، بدأوا زحفهم نحو العرش من إحدى هذه الزوايا. وفي الزمان الذي كان يحاول الإسبان والبرتغال أن يحتلوا المغرب، كانت الزوايا نقط الالتقاء الرئيسية للحياة الوطنية والمقاومة.

ويقول في موضع آخر:(3)

«وبما أن هذه الطرق كانت تقوم بدورها كنقط انطلاق للوطنية والمقاومة، فإنها لم تكن تنظر إلى الكفار والأجانب نظرة ارتياح، وغالبا ما كان تأثيرها يحول دون إقامة علاقات أفضل بين المخزن والدول الأوروبية».

* وقوف الزوايا ضد التبشير المسيحي:

وكما كان لهم فضل الجهاد بالسيف ضد العدو في المغرب وإفريقيا بصفة عامة؛ كان لهم فضل جهاد من نوع آخر، وهو عملهم ضد التبشير المسيحي، وحيلولتهم دون الوصول إلى أغراضه، وخاصة في إفريقيا السوداء، ونشر الإسلام بها على نطاق واسع أدهش رجال التبشير، حتى أن كثيرا من البلاد الإسلامية، إنما عرفت الإسلام عن طريقهم.

قال شكيب أرسلان:(4)

«إنه من سنة 1750م إلى 1901م، نهض الإسلام بإفريقية نهضة ثالثة على أيدي مشايخ الطرق؛ وذلك أنه في أواخر القرن 18، لما دخلت الدعوة البروتستانية من كل نوع إلى إفريقيا. وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهديها بدافع المنافسة. كان لابد من أن يتنبه الإسلام لمقاومة النصرانية، وأن يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقاتلتين، وأكثر أسباب هذه النهضة الأخيرة راجعة إلى التصوف. إلى أن قال:

«وفي القرن الثاني عشر والثالث عشر تأسست - طرق الدراويش - يعني الصوفية كأنها نوع مقابلة للرهبانية النصرانية وللحروب الصليبية. وفي القرنين 18 و19 حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين القادرية والشاذلية، ووجدت طريقتان هما التيجانية والسنوسية».

3) نفس المصدر السابق ص: 49.

4) في كتابه: حاضر العالم الإسلامي ج2، ص: 393، طبعة الحلبي/ مصر.

ونقل محب الدين الخطيب(5) عن بلس، أنه قال:

«إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في إفريقية، وليس خصمنا هو العربي الذي يرتاد البلاد للتجارة، بل إن هذا المعارض هو الشيخ أو الدرويش (أي الفقير الصوفي في اصطلاح المغاربة) صاحب النفوذ في إفريقية، أكثر مما هو كذلك في فارس».

وذكر في موضع آخر:

«أن إحصائيات المبشرين دلتهم على أن أكبر عامل على انتشار الإسلام بإفريقية هو رجال الطرق الصوفية». (6)

وارجع أيضا إلى ما كتبه شكيب أرسلان في تعاليقه على حاضر العالم الإسلامي، وما كتبه الدكتور حسن إبراهيم حسن عن موضوع انتشار الإسلام في إفريقيا، ودور الطرقيين فيه، لنرى أي فضل لهم في نشر الإسلام بالديار الإفريقية عامة.

* دور التصوف في نشر العلم والمعرفة بالمغرب :

إن التصوف له اليد الطولى والفضل الكبير في نشر العلم والمعرفة بهذه الديار، بما كون من علماء وأدباء وفقهاء، تخرجوا من الزوايا على يد رجالات التصوف وأعلامه، وقد كانت هذه الزوايا بمثابة مدارس ومعاهد لها استقلالها الفكري والمعنوي، تسير حسب نظام محكم معين يتماشى وروح التصوف. ومن أهم هذه المعاهد والمدارس الزاوية الدلائية(7)، التي تأسست في الثلث الأخير من القرن العاشر بناحية تادلة، وينتسب أهلها إلى قبيلة صنهاجة الكبرى بالصحراء، وقد استوطنوا تادلة في أواخر القرن الثامن الهجري. ومنذ أن استوطنوها وهم محل تكريم وإجلال من ملوك عصرهم، سواء في عهد بني مرين أو الوطاسيين أو السعديين، مما يدل على ما كان لهم من مكانة حتى قبل تأسيس زاويتهم.

وأول من ظهر على مسرح التصوف منهم، وأسس زاويتهم، هو الشيخ أبو بكر ابن محمد الدلائي، بإشارة من شيخه أبي عمر القسطلي، دفين روض العروس بمراكش، تلميذ عبد الكريم الفلاح، تلميذ سيد عبد العزيز التباع، تلميذ الشيخ الشهير سيدي سليمان الجزولي الشاذلي، صاحب دلائل الخيرات المشهور، المتوفى سنة 870هـ.

5) في كتابه: الغارة على العالم الإسلامي في تاريخ التبشير المسيحي ص: 21.

6) نفس المصدر السابق.

7) جل ما نقلته عن تاريخ هذه الزاوية ومكانتها اعتمدت فيه على كتاب الدكتور محمد حجي عن الزاوية الدلائية، الذي نال به درجه الدبلوم. ط 1384هـ/1964م. المطبعة الوطنية ـ الرباط.

أسس محمد بن أبي بكر الدلائي زاويته حتى أصبحت مورد المرشدين والطلبة والمساكين وأهل العلم وغيرهم، إلى أن استحالت بعد إلى مدينة عامرة بأسواقها ومدارسها وتجارها، وكان أبو بكر ذا ثروة هائلة، لأنه من أسرة ثرية، فصار يطعم الطعام الكثير، ويكرم الواردين على زاويته في سخاء نادر اندهش له الناس، وتعجبوا منه، ثم صار على نهجه ابنه محمد بن أبي بكر، وفي أيامه زادت شهرة الزاوية، وعظم صيتها، وغصت رحابها بالوافدين والطلاب والمريدين، وكان يقيم كل سنة احتفالا عظيما بالمولد النبوي، يقصده الناس في كل مكان، وقدر عدد الحاضرين في أحد الاحتفالات بسبعين ألف نفس، وكانوا جميعا ينزلون ضيوفا عليه، فينالون من حفاوته وإكرامه وجوائزه ما تقر به أعينهم، ويذكرنا باحتفال ملك أربل بالموصل، الذي هو أول من احتفل رسميا من أهل السنة بالمولد النبوي في القرن السابع الهجري.

وكان الشعراء يقصدونه في هذه المناسبة، وينشرون بين يديه قصائدهم في مدح الرسول ﷺ، فيكافئهم على ذلك بالصلات السنية. فإذا خصوه بالمدح قصر في حقهم ولم يلتفت إليهم. فقد جاءه الأديب عمرو بن قاسم الرباطي بقصيدتين: إحداهما في مدح الرسول ﷺ، والأخرى في مدحه، فلما انقضى الحفل، وحضر الأديب لوداعه، أعطاه صرة فيها مائتا دينار بيده اليمنى، وأعطاه فلسا واحدا بيده اليسرى، وقال له: «هذه الدنانير جائزتك على مدح الرسول، وهذا الفلس جائزتك على مدح محمد بن أبي بكر، إذ لا يستحق أن يمدح».

وبقدر ما كان معنيا بشأن الفقراء والمريدين والزوار، كان معنيا كذلك بنشر العلم وتدريسه. فأصبحت الزاوية الدلائية في عهده مركزا علميا كبيرا، يقصده الطلاب من كل حدب وصوب، فكثرت المدارس بها لإيواء الطلبة. وكان بإحداها فقط ألف وأربعمائة بيت، ولكثرة الطلبة كان يسكن بالبيت الواحد من هذه المدارس العديدة طالبان فأكثر، وهذا يدلنا على عظمة الزاوية، وإلى أي عدد بلغ طلابها.

ولما أصبحت مركزا علميا، اقتضى ذلك تأسيس خزانة علمية بها، فأسست بها خزانة عظيمة شبهها بعضهم بخزانة الحكم المستنصر الأموي، ونحن نعرف مقدار ما كان بخزانة الحكم من الكتب، وأن فهارسها وحدها كانت تبلغ أربعا وأربعين فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة، ليس بها إلا أسماء الكتب.

وبلغ شأن هذه الزاوية في الميدان العلمي أن نافست القرويين أو زادت عليها.

يقول المرحوم الأستاذ عبد الله كنون:(8)

«إن الثقافة اللغوية المتينة التي كانت موجودة في زاوية الدلاء، حيث درس اليوسي، أقوى منها في فاس، بل إنا نقول: إن الثقافة اللغوية المتينة التي كانت موجودة في زاوية الدلاء، هي التي أحيت دماء الأدب في المغرب بعد عدم».

ويقول أيضا في كتاب آخر(9)، بعد أن ذكر ما كان لتنازع أبناء المنصور على الملك من الأثر السيء على الأوساط العلمية بالمغرب:

«ولكن من الألطاف الخفية أن ظهرت الزاوية الدلائية في ذلك الحين، فكأنما بعثها الله لحفظ تراث العلم والآداب الذي كاد أن يضيع، فقامت عليه خير قيام، وما هي إلا مدة قليلة، حتى صارت مركزا مهما لنشر الثقافة العربية.

وقال الناصري:(10)

«وكان لهذه الزاوية صيت عظيم في أيام محمد الحاج وابنه عمر بن أبي بكر ـ السالف الذكر ـ وكان بها من معطاة العلوم والدؤوب على درسها وإقرائها وقراءتها ليلا ونهارا، ما تخرج به جماعة من صدور العلماء وأعيانهم، كالشيخ اليوسي وأضرابه، حتى كانت إليها الرحلة في المغرب لا يعدوها، ولا يأمل سواها الراغب، وتمهد بها الأمر لأبي عبد الله محمد الحاج وأولاده وإخوانه وبني عمه، إلى أن تملك مدينة فاس ومكناس وأحوازهما وكافة القطر التادلي».

ولو لم يكن بين خريجي هذه الزاوية وما أكثرهم وأكثر علمهم وتآليفهم، لو لم يكن من بينهم إلا الشيخ أبو علي المتوفى سنة 1002هـ لكفى. وهو الذي قيل فيه:

من فاته الحسن البصري يدركه
فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

وكان إلى مكانته العلمية، وتضلعه في علوم الشريعة من: فقه وأصول وكلام ومنطق، ذا مكانة أدبية ممتازة، وشاعرا كبيرا. حتى قال عن نفسه: لو شئت أن لا أتكلم إلا بالشعر لفعلت.

وله ديوان شعر في جملة ما خلف من الآثار العلمية، وقد رثى الزاوية بعد نكبتها بقصيدة بليغة مطلعها:

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا
فيأبى ويغتاض العقيق بها جمرا

8) خل وبقل: ص: 275، ط المهدية ـ تطوان.
9) النبوغ: ص: 274، ط بيروت.
10) الاستقصا: ج6، ص: 97/ ط 1955، دار الكتاب ـ الدار البيضاء.

هذا، إلى غير اليوسي من العلماء الأفذاذ، كالسادة الذين عرفوا بعد بالمسناويين.

وإذا كان هذا هو دور الزاوية الدلائية في ميدان نشر العلم والمعرفة، في وقت كان فيه المغرب يعيش مشاكله الداخلية، وتتآكله الفتن والاضطرابات المحلية، فإن هناك زوايا أخرى لا يقل دورها أهمية عن الزاوية الدلائية، وإن لم يصل إلى ما وصلت إليه هذه الزاوية، من حيث الكم والكيف، غير أنه أدى دوره التاريخي على أي حال في بعث التراث الإسلامي، وحمل راية العلم والمعرفة، ونشرهما في مختلف أقاليم المغرب، وذلك كالزاوية الناصرية والزاوية العياشية والفاسية والدرقاوية والتيجانية والريسونية والسملالية، وزاوية ماء العينين وغيرها من الزوايا الأخرى، والتي مازالت تؤدي وظيفتها إلى الآن، ولو على نطاق ضيق، كما سنرى فيما بعد.

ومن أهمها أثرا، الزاوية الناصرية بتامكروت، وقد أسس هذه الزاوية أولا الشيخ عمر الأنصاري أحد أعيان درعة، ثم استقر بها بعد الشيخ عبد الله بن حسين الرقي الشاذلي، فقصده الشيخ محمد بن ناصر المتوفى سنة 1075هـ، مؤسس الطريقة الناصرية، للأخذ عنه سنة 1040هـ. ولما مات الشيخ عبد الله الرقي، تصدر سيدي محمد بن ناصر لرئاسة الزاوية، واستقل بها. وأقبل على تدريس العلم بها للطلبة، والأخذ بيد المريدين فانتفع به خلق كثير، وطار صيته شرقا وغربا، لأنه حج مرتين. فأخذ عنه كثير من المشارقة. ومن تلامذته الشيخ اليوسي الآنف الذكر، لأنه كان أخذ عنه الطريقة الشاذلية قبل أن يتصل بالزاوية الدلائية، وله في مدحه قصيدة طويلة تبلغ 450 بيتا، وهي مطبوعة على حدة. ومن تلامذته كذلك العلامة المطلع المشارك أبو سالم العياشي وصاحب الزاوية العياشية، ومؤلف الرحلة المشهورة.

وتاريخ الزاوية الناصرية، وما تفرع عنها من زوايا وتاريخ رجالها وأبنائها، مبسوط في كتاب طلعة المشتري، المطبوع بفاس لصاحب الاستقصا.

ومن الزوايا الشهيرة بالمغرب، والتي تأسست هي كذلك في هذا العصر، الزاوية الفاسية، التي أسسها الشيخ أبو المحاسن سيدي يوسف الفاسي أحد رجال سلسلة الطريقة الدرقاوية، المتوفى سنة 1013هـ، وهو تلميذ سيدي عبد الرحمان المجذوب المتوفى سنة 976هـ.

وقد تخرج من هذه الزاوية وعلى أبنائها علماء أجلة ورجال كبار. وكان للسادة الفاسيين من المجد العلمي واليد الطولى في التصوف وعلومه ما هو معروف، ويكفي من مجدهم أن السلطان مولاي سليمان ألف في تراجمهم بنفسه كتابا سماه:

(عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد).

ثم الزاوية العياشية المعروفة اليوم بزاوية سيدي حمزة بسفح جبل العياشي بناحية ميدلت، وأول من أسسها هو الشيخ محمد بن أبي بكر العياشي والدائبي سالم، بإشارة من شيخه محمد بن أبي بكر الدلائي المتوفى سنة 1046هـ.

وآل الأمر من بعده إلى ولده أبي سالم العياشي، المتوفى سنة 1090هـ، ثم إلى حمزة ابن أبي سالم، وبه عرفت.

وقد قامت بها هي كذلك حركة علمية، وأسست بها خزانة لا تزال موجودة إلى الآن، وتعد ذات قيمة كبرى.

ثم تأسست بعد الزاوية الدرقاوية، مع الشريف مولاي العربي الدرقاوي دفين بني زروال بأحواز فاس، المتوفى سنة 1239هـ وكان في وقته كالشيخ سيدي عبد الله الغزواني، المتوفى سنة 935هـ، دفين القصور بمراكش، في كثرة أتباعه وما تفرع عن طريقته من عدة طرق، انتشرت في مجموع البلاد الإسلامية.

ولم يمت مولاي العربي الدرقاوي حتى خلف نحو أربعين ألف تلميذ. كلهم متأهلون للدلالة على الله عز وجل. ومن أشهر أتباعه الشيخ أحمد البوزيدي، المتوفى سنة 1223هـ دفين غمارة، وتلميذه الشريف سيدي أحمد بنعجيبة، المتوفى سنة 1224هـ وصاحب التفسير وشرح الحكم وغيرهما من الكتب القيمة في التصوف، والشيخ الحراق، المتوفى سنة 1261هـ بتطوان، وصاحب الديوان في الشعر الصوفي. ومن تلامذته كذلك، الجد سيدي الحاج بن عبد المومن، صاحب أدب المريد، ودفين تجكان بغمارة، المتوفى عام 1262هـ وغيرهم وغيرهم.

ثم الزاوية التيجانية، التي أسسها سيدي أحمد التجاني، المتوفى سنة 1230هـ بفاس، وما تفرع عنها من زوايا في جل العالم الإسلامي، وخاصة في إفريقيا من المغرب إلى مصر.

ثم الزاوية الوزانية، التي أسسها مولاي عبد الله الشريف، المتوفى سنة 1089هـ، وكان بها هي الأخرى خزانة علمية مهمة، حتى أن الشيخ الرهوني ألف حاشيته التي تعتبر عمدة الفقهاء والقضاة والمفتين من خزانتها.

وقل مثل ذلك عن الزاوية الريسونية، بتازروت في قبيلة بني عروس، وقد أسسها سيدي محمد بن علي بن ريسون في معركة وادي المخازن، كما سبقت الإشارة إليه.

هذا عن الزوايا التي قامت في جنوب المغرب وصحرائه، ومن أشهرها الزاوية

السملالية، التي أسسها الشيخ سيدي أحمد بن موسى بتازروالت، وكان لها من النفوذ والظهور ما مكن رجالها من تملك سوس وغيرها من البلاد الصحراوية، بل امتد سلطانها إلى السودان.

وكزاوية ماء العينين بشنجيط، (موريطانيا حاليا)، وما كان من أبنائها من محاربة الاحتلال الفرنسي لموريطانيا، ونزوح ماء العينين عنها إلى المغرب في نحو عشرة آلاف من أتباعه، ثم قيامهم بمحاربة الفرنسيين عند إعلان الحماية، ما قاسى منه الفرنسيون كثيرا. وتمكن أحمد الهيبة ماء العينين من الاستيلاء على مراكش، ثم خرج عنها.

وتاريخ أحمد الهيبة هذا في الكفاح والتصدي للاستعمار الفرنسي تاريخ حافل بالبطولات والأمجاد...

وكما كان نشاط هذه الزوايا قائما على أشده في داخل المغرب، كان لأخواتها الممتدة في طول البلاد الإسلامية وعرضها نشاطها كذلك. وكان هناك تواصل وتزاور وتبادل بين هذه الزوايا المختلفة، مما جعل حركة علمية مباركة، ونهضة صوفية عظيمة، تشمل العالم الإسلامي كله تقريبا، ولذلك نراهم يتصدرون المعركة في وجه الاستعمار الأجنبي هنا وهناك، لما كان لهم من نفوذ ومنزلة لدى عامة المسلمين.

طنجة ـ محمد علي بن الصديق

جادك الغيث...

للشاعر أحمد الجمالي

جادك الغيث إذا الغيث همى ... وطن الأجداد يا خيرى
بك هذا الشعب يحيا آمنا ... مستقرا هادئا منسجما !
في ظروف ألبست عالمنا ... فتنا من هولها قد برما !
لك هذا الشعب أهدي روحه ... طاردا عنك العدى كي تسلما
قد فداك العرش والشعب الذي ... عاش في أكنافه ملتئما
من عهود زاهرات قد خلت ... وهما صنوان لم ينفصما
فهما للوطن الحر هنا ... حصنه الواقي من الضيم هما
هو ذا مغربنا الأقصى الذي ... هام بالعرش وبالعرش احتمى
عيده لاح على الأرض التي ... مجدت ذكراه قلبا وفما
فغدا الشعب له منشرحا ... ولسان الشكر يعلو المبسما
كله يبدو طروبا راقصا ... مثل طير بين روض حوما
يهتف الشعب : ليحي العرش، إذ ... به أمسى أمره منتظما
في ظلال «الحسن الثاني» الذي ... لم يزل بالشعب يمضي قدما
مرت الأحداث لم يأبه لها ... في ثبات لم ولن ينهزما
هكذا شيمته، إذ لم يزل ... - إي وربي - للوفا ملتزما !!
فسلوا الماضي عن النفي الذي ... ذاق فيه وأباه العلقما

رسلوا الحاضر ما يبذله — من جهود في مسيرات النما
رسلوا «القدس» الذي يرأسه — وعلى تحريره قد أقسما
سنصلي نحن في القدس غدا — رغم أنف الغاصبين اللُّؤَما
تسم أقسمه عاهلنا — أيقنوا أن سيبر القسما
بدا يسعى لما ينقذه — بجهود المخلصين العظما
ملك «الأقصى» أيا «قدس» أب — لك راع، لم تخشى مجرما ؟!
أو تخشى ورئيس «القدس» قد — كان أولى المصلحين الزعما ؟!
لجنة «القدس» التي يرأسها — عرفت فيه الغيور المسلما
ملك يسعى لخير العرب، لا — يرتضي الضيم ولن يستسلما
سيظل «الحسن الثاني» لهم — الزعيم العربي الملهما
يا مليكا نعم ما يحمله — خلقا سمحا وعلما قيما
وذكاء مفرطا فاق النهى — وطموحا للمعالي قد سما
كم خطاب قاله وسط الملا — فاق قول البلغاء الحكما !!
إن يقل أصغوا له قاطبة — ليعوا قولا سديدا محكما
فكره السامي لهم قد جعلـ — ـوه سراجا كي يزيحوا الظلما
حبه للعرب والأوطان قد — أذكيا فيه الإبا والشمما
حرر الصحراء في أوطاننا — وعلى توحيدنا قد أقسما
وغدا يعلي بها شكل البنا — رافعا فوق الرمال العلما
إنه سرعان ما أنعشها — وجلا عنها الشقا والسقما
آمن الثاوي في أعماقها — دارئا عنه الردى والنقما
أيها اللاجئ ما أنت بتنـ — ـدوف إلا لعبة مثل الدمى
تعبث الأيدي بك اليوم وما — أنت دار شخصك المنعدما !!
أيها اللاجئ ما كنت لتحـ — ـيا مصيرا ومآلا مبهما !!
فاهجر الذل الذي أنت به — وانبذ الوضع الحقير المؤلما
والتحق بالوطن الأم وصل — بأخيك المغربي الرحما
تجد اليوم به ما ترتجي — وتعش في حضنه محترما
فارجعن للوطن الأصل تكن — مطمئنا وعزيزا مكرما
وطن الأجداد، هل ترضى له — يا ابن أمي أن يرى منقسما ؟!

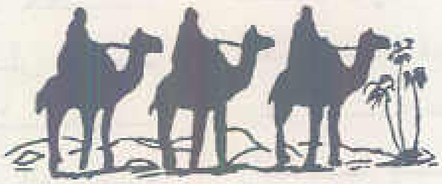
لا - وربي - لن يرى منقسما ... وطن يكلأه رب السما

وطن عاهله منذ الصبا ... به ما انفك محبا مغرما

فاحفظ الله مليكا لم يزل ... بك ربي مؤمنا معتصما

وصن الشبلين للعرش وأبـ ... ـقهما يا رب ذخرا للحمى

البيضاء - أحمد الجمالي



من كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله

الأديب العروضي

محمد بن الطيب اسكيرج

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ
محافظ خزانة القرويين بفاس

مرت على المغرب فترات قاسية بعد موت المولى إسماعيل، نظرا لما نشأ عن موته من اضطراب داخلي، ناتج عن وجود بعض الفتن المترتبة عن عدم الاستقرار الحكمي بعده. فقد كثر الخلاف بين أبنائه، وتسببت وضعية جيش البخاري في إحداث شغب متصل، ولم يتغلب المغرب على هذه الفتن إلا باعتلاء المولى محمد بن عبد الله على عرش أسلافه الكرام.(1)

لقد استطاع هذا الملك العظيم أن يحمي الثغور، وينشر الأمن، ويربط العلاقات الودية بينه وبين عدد من دول العالم، وأن يسعى بكل ما لديه من وسائل إلى التفاوض مع بعض الدول المجاورة، لإطلاق سراح عدد من الأسرى المسلمين، فازدهرت بسببه السفارات المغربية التي تعهدها بعطفه ورعايته، واختار لها عددا من الأدباء والعلماء ورجال السياسة، فنجحوا في سفاراتهم، ودونوها في رحلات ما زالت إلى الآن تنير الطريق أمام الراغبين في دراسة التاريخ المغربي أثناء هذه الحقبة.(2)

ولقد كان المولى محمد بن عبد الله حريصا على نشر وسائل الثقافة في بلادنا، وعلى إحياء معالمها، والسعي في إصلاح التعليم، سواء كان دينيا أو أدبيا، مع العمل على تشجيع الأدباء والفقهاء ورجال الحديث، ليعتنوا بالتأليف المنظم المركز،

1) امتدت أيام حكمه من سنة 1171هـ إلى 1204هـ.
2) من بين هذه الرحلات السفارية رحلة الغزال، ثم رحلة ابن عثمان المكناسي إلى إسبانيا، ورحلة الزياني إلى تركيا.

القادر على جمع المعاني في قالب يسهل معه استحضار المضمون، وربط بعضه ببعض.

ولم يكن هو نفسه بعيدا عن الميدان العلمي، فقد ألف الكتب، ورتب أبوابها، وحاول أن يكون متحررا في أفكاره، بعيدا عن الجمود المطلق، والتقليد الأعمى.(3) وكان يقرب إليه ذوي المواهب من الأدباء والعلماء، لتزدهر الدولة بهم، ولتنمو الحركة العلمية بمواقفهم واجتهاداتهم وإبداعاتهم.

ومن بين الذين كان لهم حظ في الارتباط بالخدمة المولوية الأديب الشاعر محمد بن الطيب سكيرج. فقد كان ضمن كتاب الدولة، وكان يمتاز برقة الطبع، وجمال الخط وسرعة البديهة، ويعتبر ضمن الشعراء الذين كان لهم وجود أدبي في هذه الحقبة، وكانت بينه وبين ابن الونان المعاصر له مساجلات كلامية بلغت إلى حد الهجاء المتبادل. إذ من المعلوم في تاريخ الأدب المغربي أن ابن الونان نظم قصيدة في مدح السلطان سيدي محمد بن عبد الله، اشتهرت بالشمقمقية، مزجها بمختلف الأغراض من غزل وفخر ومساجلة. قال في مطلعها:

مهلا على رسلك حادي الأينق
ولا تكلفها بما لم تطق

فطالما كلفتها وسقتها
سوق فتى من حالها لم يشفق

وأثناء الفخر بنفسه وبقبيلته اليمنية، ذات المجد التالد، والمواقف الحاسمة قال:

بهم فخرت ثم زاد مفخري
بأدبي الغض وحسن منطقي

وزان علمي أدبي فلن ترى
من شعره كشعري المنمق

فإن مدحت فمديحي يشتفى
به كمثل العسل المروق

وإن هجوت فهجائي كالشجا
يقف في الحلق ومثل الشرق

فبشرن ذاك الحسود إنه
يظفر في بحر الهجا بالغرق

وقل له إذا اشتكى من دنس
أنت الذي سلكت نهج الزلق

وقفت في الجرأة خاصي أسد
فمت بغيظك وبالريق أشرق

وما الذي دعاك ياخب إلى
ذا الأفعوان ذي اللسان الفرق

(3) يمكن الاستدلال على ذلك بكتبه الحديثية، وبكتابه (طبق الارطاب) الذي شرح فيه الحديث المتعلق بأركان الإسلام الخمسة، الموجود بمخطوطات خزانة القرويين تحت رقم 746.

طقت بالزور أما كنت تعي
أن البلا موكل بالمنطق
ولم تخف من شاعر مهما انتضى
سيف الهجا فرى حبال العنق(4)

فقد أشار الجريري، شارح هذه القصيدة، أن ابن الونان حينما كان يوجه جام غضبه على هذا الحسود إنما كان يقصد بذلك الأديب محمد بن الطيب سكيرج، لكن ماذا كان موقف هذا من ذلك؟

إنه تصدى هو أيضا لابن الونان بقصيدة اشتهرت في الأدب الهجائي المغربي، الذي يمثل هذا النوع من الأغراض الشعرية فقال:

ألا قل لغمر جاهل وحسود
غبي بليد الطبع حلف جمود
ينافس في العلياء حبرا مهذبا
له في مقام المجد خير شهود
لعمري لقد أرقيت نفسك للعلا
بلا سلم إذ لم تبؤ بفريد
وحاولت أمرا لست تعلم أنه
تمنع عن ذي منعة وعديد
فكم ظلت أسعى في رشادك علني
أراك حذورا من شديد وعيدي
فها أنذا مستجمع الفكر راكبا
مطية فخر في مقام شهود
تيقظ لقولي واستمع كل حجة
فإنك يا ابن القين بيت قصيدي
وخذ من قرى الأبطال ما أنت طالب
فلست على راجي الندى بشديد
ولا تأس إن أبصرت زلزال بارق
تقدمه نكباء ذات خلود
وإنك ما نبهت مني نائما
فللطعن فاصبر واعتجز بضمود
فأما اكتساب المجد من عهد يعرب
فما هو عن أسلافنا ببعيد
وأما العلا فاسأل ترى فضل أهلنا
فكم حملوا للمصطفى من بنود
وأما رعايات الذمام فإنها
بأذيالنا نيطت بغير جحود
وأما الندى فانظر بعينك حينا
فإن عيون المرء خير شهيد
تخبرك الأنام عني حقيقة
بأني في لخم أعز وليد
ذوي الحسب الموفور والحلم والتقى
وكل فخار داثر وجديد
إذا برزت يوما طلائع حزبهم
ترى العز يومي نحوها بسجود
تراهم لدى الهيجاء أسدا فواتكا
وفي السلم سباقا لكل مشيد
تهابهم الأسد القواصم في الوغى
ويألفهم في السلم كل وليد

4) انظر القصيدة بكتاب (النبوغ المغربي) لعبد الله كنون رحمه الله ج:3، ص: 834.

أكفهــم تجري على كــل حــالــة
بحرب وسلم مـن ندى وجسيد(5)

وهي قصيدة تـأخذ نفسـا تقليديـا في المواجهة الشعرية، تذكرنا بما كان يقع بين الفرزدق وجرير، وقد أبرزت روحا قوية، وأبـانـت عـن قيـم مثلى كـان يعتـز بها الشاعر، ويعلم أن معـاصريه إذا سمعوها أحبوه من أجلها؛ إنها الروابط التي تربطه بـالأنصـار، حيث أن أجـداده ينتمـون إلى هـؤلاء الـذيــن آزروا الـرسـول ونصروه وعززوه.

ومن المعلـوم في تاريـخ الأدب المغربي، أن أسرة سكيرج التي ينتمـي إليها محمـد بن الطيب كانـت أسرة شاعرة، وأن بعض أجداده كان ممن له شأن في المدح النبوي، فقد قال أحـد شعرائها الذين عـاشوا قبله بزمـن قليل، وهـو محمد المدعـو حمو بن عبد الوهاب في أبيات وجهها إلى النبي ﷺ، يتشـوق إلى زيارتـه، ويبدي فيهـا لواعـج حبه، وصدق هيامه ما يأتي: (6)

إليك رسـول الله شوقـي وبغيتي
ومنتهى أغراضي وسـؤلي وأسوتي
لتغفـر أوزاري وتقضي حـوائجـي
وأرجـو من اللـه القبـول لتوبتـي
تداركني يامولاي بـالعفو والرضا
وعجل بفضل منك حجي وزورتي

وإنها لأبيات تصور مدى تعلق المغاربة بتلـك البقـاع الطاهـرة، وتسجـل الشـوق المتواصل الذي لا ينطفئ أواره، ولا تنقضي بواعثه.

ولعـل اهتمام أسرة سكيرج في مـدينـة فاس بالعلم، وانتماءها إلى الأنصار، كانت من بـواعث التقديـر لهذا الأديب النـاشئ، الـذي أضاف إلى مـا ورثه عـن آبائه مـن عطاءات ما يسـاعـد على استمرار نشاطهم العلمي والفنـي، فقد كان حـاضر البديهة، دقيق الملاحظـة، يجمع بين النظـم الأنيق، والنثر البديع، والقوة على التوضيح، بحيث لا تحس وأنت تقـرأ ما كتـب بغموض في القـول، ولا بتعقيـد في المعــاني، وبـذلـك وصفـه كثير ممــن تـرجموا لــه قـديما وحديثا.

قال عنـه الجريري شـارح الشمقمقية: «إنه كان آية في علم المعقول والمنقول، وهو ابن مقلة زمانـه في ترصيف الخط وإبداع الـرسم، ممـا تضرب بـه الأمثال في ذلـك، وكان مخترعا فنانا في بسط الخط المغربي والمشرقي والكوفي». (7)

5) (النبوغ المغربي) ج:3، ص: 704، إلا البيت ما قبل الأخير.
6) نقلت هذه الأبيـات من ورقة كانـت بخزانة الفقيه الحاج أحمد سكيرج رحمه اللـه، مكتوبة بخط العـالم المرحوم السيد العربي الشامي.
7) وظف الفقيه المنوني هـذا النص أثناء الحديث عن الوراقـة المغربية في عهد السلطان العلوي محمـد الثالث (انظر دعوة الحق/ العدد الثاني من السنة الثامنة عشرة /مارس 1977).

وقال عنه المؤرخ محمد بن عبد السلام الرباطي الملقب بالضعيف ما يأتي: «إنه ركب يوما مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله القارب للتعدية بين الرباط وسلا في وادي أبي رقراق، فأنشد بيتين أجازه عليهما بمائتي دينار، وهما قوله:

ولما رأيت البحر في الجود آية
ومن جود الدر النفيس المقلد

سألته من في الناس علمك الندى
فقال أمير المومنين محمد

وممن ترجم له، المؤرخ سيدي سليمان الحوات، وقد نقل عنه الأستاذ المنوني في مقال له عن ملامح الحركة الأدبية في العصر العلوي الثاني بالعدد الثامن من مجلة دعوة الحق الغراء من السنة الخامسة عشرة عام 1973م.

وقد اطلعت على ترجمته في كثير من المراجع الحديثة، أذكر منها ما رأيته في ورقة بخط المؤرخ عبد السلام ابن سودة رحمه الله، ذكر فيها أنه نقلها من كتابه (زبدة الأثر ممن مضى من الخبر في القرن الثالث والرابع عشر) وتشتمل على ما يأتي:

توفي في جمادى الأولى من سنة 1194هـ الفقيه العلامة الأديب الكاتب الشاعر المقتدر أبو عبد الله محمد بن الطيب بن عبد القادر سكيرج الأنصاري، من أولاد سكيرج المعروفين بفاس، وهم ينتمون إلى الأنصار. كان صاحب الترجمة كاتبا بحضرة السلطان سيدي محمد بن عبد الله علامة مشاركا، شاعرا يقول الشعر بديهة، حلاه أبو الربيع سليمان الحوات بقوله: صاحبنا خاتمة أهل الأدب، الذي كانت قريحته تنهل من البلاغة على كل حدب، يتيمة الدهر، في سلوك جواهر الفخر، له نظم رجز سماه: (الشافي في علم العروض والقوافي)، وله حواش على شرح الشيخ ابن مرزوق على الخزرجية إلى غير ذلك، وله شعر متوسط الجودة.

ومن خلال هذه الترجمة، نرى أن مساهمته في التأليف كانت موجهة إلى علم العروض، فهو من جهة كتب بعض الحواشي على شرح الخزرجية، ومن جهة أخرى وضع نظما رجزيا في علم العروض.

والغالب أن وضعه لهذا النظم كان منه مساهمة في تسهيل تلقين هذا العلم، نظرا لكون الرامزة الخزرجية صعبة التناول، كثيرة الغموض.

اطلعت على هذا الرجز بخط مؤلفه عند الأديب السيد عبد الكريم سكيرج رحمه الله، وهو خط واضح جيد، وفي صفحته الأولى يقول:

الحمد لله، وضعت هذه الأرجوزة في ربيع الثاني من عام 1176هـ، وأخرجتها

مـن مبيضتهـــا في رمضـان مـــن السنــة المذكورة، وبالله التوفيق.

ويقول في صفحته الأخيرة:

انتهت بحمـد الله وعـونه، والحمـد لله الذي هـدانا لهذا وما كنا لنهتـدي لولا أن هدانـا الله، بخط مـؤلفها الفقير إلى رحمة الله تعالى، محمد بن الطيـب بن عبد القادر سكيرج الأندلسي، لطف اللـه به، وأجاره في الدارين، وأماته على حسن الخاتمة، وصلى اللـه على سيـدنـا محمـــد وآلـه وصحبـه وسلم.

وتمتاز هذه المنظـومة بجمال الأسلوب، ورونق العبارة، وتحديد الرموز وتفسيرها وتعيينها. يقول في مقدمتها ما يأتي:

حمـدا لمـــن بسط أبحـر النعـم
ومن مـديد طـوله يـؤتي الحكم
ثـم على خير الـــورى صـلاتي
وآلـــــه وصحبـــــه الهداة
والتابعين نهجهـــم على الـــدوام
مــا مدحـه صيـغ بنثر ونظـام
وبعـــد فــالشعـــر لـــه ميــزان
بـــه يلـوح النقـص والــرجحـان
وذلـك الميزان سمــه بالعـروض
فكـن بـه على الـدوام ذا نهوض
وهــو مــا معتـدل وزنـا عـرف
بـــه وراجـح ونـاقـص وصـف
فـالنظم مــا قصـدت فيه وزنــا
وكـــان ذا قـــافيـــة ومعنـــى
والشعـــر نظم مـــن كلام العـــرب
أو مـــن تــلاهـــم بكـلام عـــربي
أبحره (يـه) تقـوم مـــن سبـب
ووتـــد وذا المقـــال المنتخـــب
طول مديـد البسط وفر كـاملن
بهزج رجـز وأرمـل ســـارعـن
وسرح الخفيـــف للمضــــارع
واقتضب المجتـث قرب الســامع
واجعل حـــروف أبجـد لــلأبحـــر
عــلامـة للسين فــافهـم خبري
أول نطـق المرء حـرف حـركـا
إن زدت ثــان سبـب قــد سبكـا
وعلمـــوا بــالصفـــر للمحـــرك
وســاكـــن بـألــف كـــذا حكـي
قـــال للخفيـــف وثقيلـــه عـــل
ووتـــد إن زدت حـرفـــا يجعـل
وســم بـالمفـروق فعـل وفعـل
لضـــده والجزء من جنسين حـــل
وهو خماسي وسباعي والأصول
أربعـة والفـــرع ســت فتقـــول
فعـولـــن أول مفـاعيلـــن مفـا
علتـن أفرق فـاع لاتـن بـالوفـا
والفـــرع فــاعلن كـــذا مستفعلـــن
وفــاعــلاتـــن متفـاعلـن حســـن
كذاك مفعـولات مع مستفـع لن
مفروقـة الوتد فاحفظهـا وصن
ورتبـــن لها حــــروف أبجـــد
للــــــيـــــا وأول لأول ورد

وإنما المصراع منهــا يبنـــى
والبيت مصراعان فـادر المبنـى
وهــو اليتيـم والثـلاث نتفــه
والعشر قطعـة فـاحكـم وصفـه
تمـام عشريـن هـو القصيـد
أتـى عـن الفـراء ذا التجـريد
دوائر الخليـل خفشـق وهـي
مختلـف مـؤتلـف فـانتبـه
مشتبـه مجتلـب متفـق
وزن لجـزء مـثـلـه تحـق

وهكـذا استمـر في نظمهـا إلى نهايتهـا، ويمكن تحديد مضمونها فيما يأتي:

أولا: التعريف بعلم العروض.

ثانيا: التعريف بالشعـر، وسار في ذلك على القول الـذي يجعل القصـد أساسـا في حقيقة الشعر، إذ لا يكفي أن يكون الكلام موزونـا مقفى، إذ لا معنـى في إدخالـه في باب الشعر، لأن هذه الأوزان قد تأتي عفوا دون قصد في كلام نثري، سـواء كان نثرا عاديا، أو كان حديثا، أو كان قرآنا، فليس من الشعر قول الله تعالى:

لـن تنـالـوا البر حتـى
تنفقـوا ممـا تحبـون

رغم التـوازان النغمـي، لأن ذلـك ليـس مقصودا، وقـد كان العرب يعرفـون ذلك، ولذلك لم يستطيعوا أن يستدلوا على قولهم حينما نسبوا الرسول إلى الشعر. فهم حين قـراءتهم للقـرآن اضطربـوا، وأزالـوا هـذا الحكم بذاتهم، لأنهم وجدوا سبك القرآن أسمـى مـن قوانين الشعـر، وأقـوى مـن ظواهره.

وكـذلك ليـس مـن الشعـر قـول الرسول ﷺ:

أنـا النبـي لا كـذب
أنـا ابـن عبـد المطلـب

فإن مجرد التـوازن الصـوتي لا يجعـل الكلام شعـرا ما لم يكن مقصـودا ومكررا ومرتبا حسب قوانين الشعر المعروفة.

ثالثا: الإشعار بـأنه يسير على مـذهب الخليـل في تحديـد أوزانــه بخمسـة عشر بحرا.

رابعا: انتقـاؤه للقـول الـذي يـرى أن الأبحـر إنما تقـوم من الأسبـاب والأوتـاد فقط، دون الاحتياج إلى ذكر الفواصل وقد قال: إن هذا هو القول المختار المنتخب.

وهو رأي سار عليه ابن عبد ربه قديما، والغالـب أن سبب هـذا الاختيار راجـع إلى الصــورة التركيبيـة، وليــس راجعــا إلى الصورة المرئيـة، مع أن الشعـر يحتاج إلى الاعتبـارين معـا، لأنه محتـاج للانسجـام والإيقاع. وإذا كـان الانسجام داخليـا فإن الإيقاع مرتبط بالقوافي، والشعر في تفاعيله يحتـاج إلى الأسبـاب والأوتـاد، ولكنـه في إيقاعـه يحتاج إليهما وإلى الفواصـل، وهذا هـو السبب الـذي دعـا الخليل إلى وضـع المصطلحات الستة، ولم يقتصر على الأربعة

التي سار عليها صاحب المنظومة. لذلك نرى أن هذا الانتخاب الذي ارتآه الناظم راجع إلى عدم التنبه إلى الوجهة التي كان يراها الخليل رحمه الله.

خامسا: الحديث عن التفاعيل الأصلية والفرعية، وقد كان دقيقا في شرحها.

سادسا: التعريف بحد القصيدة، وقد سار على مذهب الفراء، وهو مذهب غير مشهور يخالف ما عليه الجمهور الذي يحدد القصيدة بسبعة أبيات فأكثر.

سابعا: الحديث عن الدوائر الخليلية بدقة، إلا أنه سار على القول الذي يسمي الدائرة الثالثة بدائرة المشتبه، والرابعة بدائرة المؤتلف، مع أن العكس هو المشهور.

وهكذا انطلق في تفصيل هذا العلم فيما بقي من الأرجوزة، واستخدم الرموز والإشارات الدالة على الاستدلالات المعهودة المتداولة بين علماء العروض، شأنه في ذلك شأن أصحاب المنظومات الأخرى.

إن المنظومات العروضية ليست ذات قيمة إلا من حيث تكثيفها للمعلومات، وإلا فهي محتاجة احتياجا ضروريا للاطلاع على الشعر الخارجي، وحفظ ما هو ضروري، لتمثل القوالب الشعرية العامة، بل إن الحفظ يجب أن يكون على نوعين حفظ الشواهد العامة، وحفظ ما يوازيها من الشعر الجيد.

أما الشواهد العامة فللقدرة على الاستفادة من المنظومات، وأما ما يوازيها فللقدرة على الإبداع، وللتمكن من الوسائل الفنية المواكبة للعلم، إذ لا فائدة في علم العروض إذا لم يكن مؤازرا باستعداد ذوقي وفني، يخرج القواعد من إطارها الجاف إلى إطار يحيي الذوق، وينعش الأدب.

فالمنظومات على هذا الأساس هي تلخيص لما هو موجود لا انطلاق إلى ما هو مفقود، وهذا هو الأساس الذي يجب أن توظف عليه، أما إذا جعلت هي المنطلق للعلم، فإن ذلك سيكون عسيرا ولهذا كان ينبغي في شرح المنظومات التعليمية أن تبدأ بشرح المضمون العلمي مستقلا عن النظم، حتى إذا استوعبه القارئ، وعلم محتواه، قدم إليه النظم على أساس أنه خلاصة لما قدم، وفي ذلك فائدة كبرى.

ولحد الآن، لم أجد من اتبع هذه الطريقة في شرح المنظومات، مع أنها حسب ما يتضح تعتبر منهاجا سديدا.

وعلى أساس المنهاج القديم تولى أحد العلماء المغاربة شرح المنظومة المذكورة، وأعني به الفقيه أبا العباس أحمد سكيرج، الذي وفق في هذا الشرح، نظرا لذوقه

الأدبي، ولكثرة استـدلالاتـه، ولـوفـرة نقـولـه.(8)

وهـذا الشرح مازال مخطـوطا يتجاوز مـائتـي صفحة مـن الأوراق ذات الحجم المتوسـط، ولقد سمـاه بـ: (منهـل الـورد الصافي، والهدى مـن فتح الكـافي، في شرح الشافي، في علمي العروض والقوافي)، وتعمد أن تكـون حـروف العنـوان - إذا قوبلـت بالأعداد - تاريخا لإتمام تأليفه، وهو سنة 1321هـ وهو شرح يتجاوز مـائتي صفحة من الحجم المتوسط، يمتـاز بسعة المعرفة، ودقة العبـارة وشمولية الاطلاع، رغـم أنه ألـف في أيام شبـاب هـذا المؤلـف القديـر رحمه الله.

قال في مقـدمة شرحـه: لما وقفت على الشافي في علمي العروض والقوافي، نظم ابن عم جدنا الأعلى، المرحوم بكرم المولى السيد محمد بن الطيب بن عبد القادر بن حَ حمو سكيرج، كاتب جلالـة السلطان المغمور في رحمة الله سيـدي محمد بـن مولاي عبـد الله، وألفيته نظما عجيب الصنع، حـاذى به رامزة الخزرجي في الوضـع. وأظهر فيه ما انبهم من المعاني، بـأوضح عبارة في رفيع المباني، وشيد فيه مـن قصور الزوائد، ما يرى من أعظم القواعد، عزمت على شرحه، وفتح أبـواب صرحه، لينال بـه كل طـالب قصده من هذين العلمين، فيعود النفع على الجميع إن شاء الله من غير مين.

والواقـع أنـه حـاول أن يجعـل هـذا الشرح عمـدة علميـة، جـال فيـه جـولـة العارفين، ونقل فيه نصـوصا من مختلف كتب الأقدمين واستخدم الجانب الذوقي في اختيار الاستدلالات الرائقـة المنسجمة مع ذوق الأدباء وذوق المتصوفين، وأكثـر فيه مـن الإحـالات، ممـا يـدل على سعـة اطـلاعه، وقـوة خبرتـه، ولو تيسر طبعـه لأفاد في بابه.

ولقـد اطلع على هـذا الشرح نخبة مـن الأدباء المغـاربة، فقرظـوه تقريظـا حسنا، وأبانـوا عن الـواقع المغـربي في أوائل هذا القـرن مـن حيـث الاطـلاع والاهتمام بالجوانب الأدبية والجوانـب اللغوية، ولقد تيسرت لي الظـروف أن أطلـع على هـاتـه النسخة المخطـوطة، وبملحقهـا المخصص للتقريظـات، المعبرة عن قيمة هـذا الكتاب وقيمة مؤلفه.

مـن ذلـك، تقـريـظ أستـاذه الشريـف مولاي إبـراهيم العلـوي، وتقريـظ شيخه الحاج عبد الكـريم بنيـس، زيادة على مـا كتبه علماء أجلاء، وأدبـاء مشهـورون في بـلادنا، وهـم حسـب الترتـيـب الزمني في التقريظ:

8) جعلت هذا الشرح من مصادر كتابي الذي ألفته في علم العروض المسمى (تيسير علم العروض والقوافي)، المطبوع بمطبعة محمد الخامس الجامعية الثقافية بفاس.

- مولاي عبد الرحمان ابن زيدان، الذي اطلع عليه سنة 1324 هجرية.

- عبد السلام بن محمد العلوي المدعو بالمحب، اطلع عليه سنة 1326 هجرية.

- مولاي المدني ابن الغازي الرباطي، اطلع عليه سنة 1331 هجرية.

- أبو عبد الله محمد بوجندار اطلع عليه سنة 1331 هجرية.

- أبو العباس سيدي أحمد بن المواز، اطلع عليه سنة 1332 هجرية.

- الجيه بن شيخه الشيخ ماء العينين، اطلع عليه سنة 1356 هجرية.

- السيد عبد الله بن العباس الجراري الرباطي، اطلع عليه سنة 1357 هجرية.

وإن اهتمام المؤلف بهذا الشرح لَمِمَّا يدل على إعجابه بمحتواه، فهو كان يرى فيه صورة من شبابه يعرضه على العلماء كلما واتته الفرصة، ويعتز بذلك اعتزاز الظافر بالظفر، ويفتخر افتخار الغازي بالانتصار.

وإن من أحسن ما يبقى عالقا بالأذهان، محتوى هاته التقريظات المكتوبة بخطوط منشئيها، فهي صورة أدبية رائعة، تمثل بعض ملامح الأدب المغربي في القرن الرابع عشر، شعرا ونثرا.

ولا بأس أن نقدم إتماما للفائدة نموذجا منها، لنرى من خلاله هذه الظاهرة الأدبية الرائعة، وقد وقع اختياري على ما كتبه الشريف السيد أحمد بن المواز فقد قال:

الحمد لله الذي جعل العلم شرفا للأقدار، وسبيلا للنجاة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المنزل عليه، ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾، وعلى آله أسوة الاقتداء، وصحابته نجوم الاهتداء.

وبعد، فلما أتحفني حبيبنا العلامة البارع، المدرس المطالع، ذو الخلال الرائقة، والشمائل المتناسقة، أبو العباس سيدي أحمد بن الحاج العياشي سكيرج، بمطالعة تأليفه: (شرح الشافي في العروض والقوافي)، سامرت خرائد معانيه، وأجلت النظر خلال مبانيه، فألفيته بحيث لو اتصل بالخليل لاتخذه خليلا، ولو غنج بصر الأخفش لما ابتغى عن العلاج به بديلا، ولو هز نخلته ابن مرزوق لنال من بسرها ارتزاقا، ولو طالعه ناظم المتن لفتح لسليله أحداقا، وقال: هكذا يحيي الخلف أثر السلف سيرا وفاقا.

فما هو إلا منهل طاب ورده
ومرعى لرواد المناجع يقصد
تزف به خود العروض عرائسا
وزهر القوافي من مراقيه ترصد
وضمن من صرف ومن لغة ومن
بيان وآداب أساليب تحمد

ومستدركات يقدح الفكر زندها
ومستطردات للبراعة تسند

زها به تقريض يؤرخه وفق
باتقاته نيلا سكيرج أحمد

وبالجملة، فلله در صاحبه من مشارك أديب، وظافر من أسباب البلاغة بأوفر نصيب، زاد الله في معناه، وأثابه على نيته الصالحة فيما حرر مضمونه ومبناه، وأورده وإيانا من رضى الله منهلا صافيا، وألحقنا وجميع عباده من لطائف ستره ثوبا وافيا، بجاه سيد الأنام، عليه وعلى آله أزكى الصلاة والسلام.

والواقع أن هذا التقريظ لم يكن ناتجا عن مجاملة أو محاباة، وإنما كان مرجعه إلى قيمة هذا الشرح شكلا ومضمونا، فهو يمتاز بكثرة النقول، وبالتدخل في التفاضل بينها ومن الدلائل على ذلك، قوله حين الحديث عن البسيط:

«ويدخل هذا البحر من الزحاف الخبن في الخماسي والسباعي الكائنين في الحشو بحسن فيهما. قال الدماميني: ويظهر أن الخبن في السباعي إنما يحسن في أول الصدر، وأول العجز. والطبع السليم يشهد له، فينبغي أن يكون في غيرهما صالحا، وأما فاعلن في العروض الأولى، وضربها الأول، فالخبن فيه ملتزم، وإنما التزم خبنه لأن السبب فيه يعتمد على الوتد بعده اعتمادا قويا».

فنحن نلاحظ أنه لم يكتف بالنقل، وإنما أدخل عنصر الذوق في الحكم، دليلا على أن ذوقه الأدبي كان رائعا. هذا وإن الإشارة إلى المصدر لَمِمَّا يدل على النزاهة في الإحالة، وإلا فإننا نجد بعض الذين يكتبون في هذا الموضوع يوحون أحيانا بأن أذواقهم جعلتهم يميزون بأن الخبن في مستفعلن الموجودة في أول الشطرين مستحسنة، دون أن يشيروا إلى مصدر ذلك، ومن هؤلاء الدكتور إبراهيم أنيس رحمه الله في كتابه (موسيقى الشعر).

وعلى كل حال، فإن شرح هذه المنظومة قد أعاد للأديب محمد بن الطيب سكيرج ذكره اللائق به، وأبان عن قدرته الفنية، وعن مساهمته في إحياء الأدب العربي على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله تغمده الله برحمته.

وإني لأرجو أن تجد هذه المنظومة بشرحها هذا سبيلا إلى النشر من لدن بعض رجال الأدب، ليتناولها النقاد برعاية، وليبينوا ما تحتوي عليه من تجديد في منهجها التلقيني، وما يحتوي عليه شرحها من عيون الأدب، وحسن التطبيق.

فاس ـ محمد بن عبد العزيز الدباغ

دور العلماء في تطوير المجتمع المسلم في أوربا الشرقية

للأستاذ نيازمحمد شكريتج
أستاذ بكلية الدراسات الإسلامية
سرايفو. يوغوسلافيا

دور العلماء في المجتمع عموما، وفي المجتمعات المذكورة على الخصوص، مرتبط بعوامل عديدة داخلية وخارجية.

ويمكن حصر العوامل الداخلية فيما يلي:

– ما تضمنه الدين الإسلامي من الأفكار والقواعد التي يطرحها العلماء، وإمكانية إيجاد حلول مناسبة للمجتمع على أساسها.

– مدى الالتزام بالإسلام من قبل العلماء الذين يشرحونه، في شخصيته وأسرته وفي المجتمع المحيط بهم. وأهمية القدوة وتأثيرها على الآخرين معروفة لدى الجميع، ولا أرى الحاجة إلى تكرار ذلك. حيث يوجب الهدي النبوي الشريف على كل مسلم أن يكون على وعي كامل بهذا الجانب، لاسيما العالم منهم.

– أصالة الفكر الإسلامي، وشمولية شريعته، مع إمكانية المعايشة والتعامل مع الأديان الأخرى في الوقت نفسه.

– وحدة الأمة الإسلامية في الأهداف والعمل على تحقيق التوحيد والدين والجماعة، وهي أبرز الخصائص الدالة على وجود الإسلام في الواقع الخارجي، مع وجوب مراعاة العصر والظروف والمكان في الطريق في تنفيذ الأهداف المذكورة.

– قدوة المسلمين واستعدادهم على المناقشة الحية المفيدة مع جميع الأطراف المعنية في العالم في سبيل تحقيق الواقع

(★) ساهم الكاتب بهذا البحث في الملتقى الأول لمسلمي أوروبا الشرقية الذي انعقد بسراييفو بجمهورية يوغوسلافيا يومي 24 ـ 25 صفر الخير 1412 هـ موافق 3 ـ 4 شتنبر 1991م.

والمستقبل الإنساني الأفضل، مع الحفاظ على الشخصية المسلمة المتميزة، والاعتراف بحقوق الآخرين، وحفاظهم على هويتهم كذلك.

- ضرورة وجود الموازين الإسلامية المستقلة في جميع المجالات المبنية على التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة.

وأما العوامل الخارجية التي تحدد دور العلماء في المجتمع فلها علاقة بطبيعة المجتمع الذي يعيش المسلمون فيه، مختلطين بغيرهم، أو بأقلية في كثير من الأحيان، فمجتمعات أوروبا الشرقية كلها ذات أديان وقوميات مختلفة.

قد يكون في نظر الذين يأتون من المجتمعات الإسلامية، سواء من الشرق أو من الغرب الإسلامي، أن هذه المناطق مقسمة بين النصارى وبين المسلمين، أو على دار الحرب والإسلام، ولكن العارفين بطبيعة هذه المجتمعات، وخاصة المسلمين من هذه المناطق، لا يرون هذا التقسيم بهذا الوضوح، بل يدركون تماما مدى تأثير الإسلام وتعاليمه على أهل الأديان الأخرى، وكذلك مدى تأثير الكفر والإلحاد والعلمانية على المجتمعات المسلمة.

هذه حقيقة واقعية في عالمنا اليوم، سواء اعترفنا بذلك أو لم نعترف.

ومن هنا يؤثر هذا الواقع على دور العلماء وواجباتهم، لأنهم أيضا معرضون لهذه التأثيرات الخارجية.

فالحقيقة التي ينبغي أن تكون نصب أعيننا في شأن المجتمعات الأوروبية الشرقية، هي أن تلك المجتمعات غير موحدة دينيا وقوميا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا، فالمسلمون الذين تختلف قومياتهم ينقسمون إلى قسمين رئيسيين:

أ - سكان المنطقة الأصليون.

ب - المهاجرون أو المقيمون إقامة مؤقتة.

كما أن القسمين بينهما تداخل، وكذلك علماء المناطق المذكورة. ومن حسن الحظ، أن مسلمي هذه المناطق ينتسبون إلى أهل السنة والجماعة بلا استثناء، حيث جاءهم الإسلام عن طريق العثمانيين التابعين للمذهب الحنفي.

وغير المسلمين مختلفون في أديانهم أيضا: الكاثوليك، الأرثوذكس، البروتستانت، والملحدون، وموقفهم من الإسلام والمسلمين مختلف كذلك. فتكون العلاقة بين المسلمين وغيرهم علاقة الود والصداقة، أو علاقة البغض والعداوة على حسب التجارب التاريخية بينهم.

إضافة إلى التباين الواضح بين المناطق في مدى ضمان حقوق الإنسان وحرية التعبير، فيكون على ضوء ذلك دور العلماء

متيسرا أو متعسرا، على حسب المناطق المختلفة.

فعلى الرغم من أن الحكم العثماني الإسلامي غاب عن بعض الدول الأوروبية، وخاصة البلقانية قبل أكثر من مائة سنة، مازال الأرثودكس يحملون الكراهية الدينية والسياسية نحو الإسلام والمسلمين، لاعتبارهم الدولة العثمانية هي الممثلة للإسلام والمسلمين عامة.

كما زعم البعض منهم نفسه درعا حاميا لأوروبا من نفوذ الإسلام إلى قلبها. والغريب أن هذا الشعور لم يضمحل ولم يضعف حتى في ظل الحكم الشيوعي الملحد، والذي يؤكد ذلك أكثر محاربة الإسلام والمسلمين في الدول الاشتراكية والرادكالية محاربة شديدة من الناحية الروحية والمادية على حد سواء، حتى سقطت ضحايا كثيرة، وهدم كثير من المؤسسات الإسلامية، مثل: المساجد والمدارس والمقابر والكتب والمكتبات إلخ.

فمر العلماء بظروف قاسية، جعلتهم في بعض الأحيان لا يترددون حتى في التعاون مع الحكومة الشيوعية الملحدة، ونترك الكلمة الأخيرة في هذا المجال إلى التاريخ، والله سبحانه وتعالى يغفر لمن يشاء.

وكان الضغط والتركيز على العلماء بالدرجة الأولى، لكونهم هم الذين حافظوا على المجموعات الإسلامية كجمرات حية، وكانوا هم القوة المنظمة الوحيدة للمسلمين أثناء تلك الفترات العصيبة، ووقفوا ولو قليلا في سبيل إذابة الإسلام في تلك المناطق، رغم المحاولة المستمرة من أعداء الإسلام أكثر من نصف القرن.

والفضل الأكبر في هذا الأمر راجع إلى أئمة المساجد في المدن والقرى، وإن كانوا لم يبلغوا درجة كبيرة من العلم، فلا ينبغي أن ينسى لهم اليوم جهدهم في هذا المجال.

وأخيرا، بعد تمزق قيود الشيوعية، وجدنا أنفسنا وغيرنا كذلك في وضع أحسن وأفضل بكثير، إلا أن ذلك التحسن قد يكون غير حقيقي في بعض مناطق أوروبا والبلقان، حيث لا تتوقع التغير الكبير في تصورات الناس في يوم وليلة. وأوضح مثال لما أقوله وضع إخوانهم المسلمين في كوسوفو وألبانيا. لذا، مازال دور العلماء – حتى في هذه الظروف – كبير جدا، وأسباب ذلك مختلفة.

فخرج المسلمون من حالة الفوضى الروحية والاجتماعية التي عاشوها خلال عشرات السنين الأخيرة في ظل الحكومات الشيوعية، تختلف نوعياتهم، ودرجة التزامهم، وفهمهم للإسلام، الأمر الذي يؤثر تأثيرا مباشرا على مصير الإسلام، وعمل العلماء بينهم.

وتلك النوعيات على حسب رأيي كما يلي:

1 ـ المسلمون الذين التزموا بدينهم وطبقوه على حسب ما أتاحت لهم الظروف.

2 ـ المسلمون الذين يقبلون جزءا من الإسلام فقط، سواء في النظرية أو التطبيق.

3 ـ المسلمون الذي يقبلون النظرية فقط، ولا يطبقون.

4 ـ المسلمون التقليديون الذين خالط دينهم شيء من عادات إسلامية، وواقعهم خلاف الإسلام تماما.

5 ـ المسلمون الذين يرفضون تعاليم الإسلام عموما، إلا أنهم يحضرون بعض المناسبات الدينية، مثل: الحفلات الخاصة بمناسبة الأعياد وغيرها.

6 ـ المسلمون الذين أصلهم إسلامي، إلا أنهم لا يعرفون عن الإسلام شيئا، بدأوا يقتربون منه، ويتعرفون على بعض تعاليمه وأحكامه.

7 ـ المسلمون الذين يرفضون الإسلام تماما، فكرة الجماعة المسلمة، والمؤسسات الإسلامية، والثقافة الإسلامية.

والملاحظ، أن هذه النوعيات كلها موجودة في مختلف طبقات المجتمع: بين الشباب والشيوخ، بين الأغنياء والفقراء، وحتى بين أفراد العائلة الواحدة. وعلماء هذه المناطق جزء من ذلك الواقع مع ما فيه من إيجابيات وسلبيات. لذا حاولنا الاستعانة بالجامعات الإسلامية في الخارج من خلال تخريج دفعات من المعلمين منها في سبيل إيجاد فريق منهم لتعليم الشباب الإسلام الصحيح. ورغم ذلك كله، يبقى عدد منهم مقبلا بمفاهيم المجتمع المحيط به، فنرى أحيانا إماما من الأئمة ينسجم مع ذلك المجتمع شبه المسلم بدلا أن يكون هو الذي يقود عائلته وجماعته في جميع شؤون الحياة، يصبح مقلدا أعمى مثل أي واحد من الناس، وحجته أن ذلك فعل الناس دون أن يفكر هل ذلك الفعل وهؤلاء الناس وافقوا ما يريده الإسلام أم لا؟

ونحن نتساءل الآن: ما المخرج من مثل هذا الواقع؟

أرى أن المخرج في جهتين:

أ ـ الاعتماد على الطاقات الذاتية ذات التوجهات الإسلامية السليمة في تثبيت دعائم مذهب أهل السنة والجماعة بين العلماء أنفسهم، وبين عامة الناس كذلك.

ب ـ الاستعانة بالإمكانيات البشرية والمادية الموجودة في الجامعات الإسلامية القديمة، حيث كان الإسلام في أوروبا الشرقية والبلقان حديث العهد إلى حد ما، مع تأثير العوامل الخارجية المستمرة، والمذاهب الدخيلة عليه. لذا يشبه وضع المسلمين في بعض المناطق المذكورة وضع المسلمين الأوائل في مكة قبيل الهجرة إلى حد كبير.

وإذا نظرنا إلى التاريخ، رأينا أن قوة أو ضعف الإسلام والمسلمين وعلمائهم، ومدى الالتزام بالإسلام، يتفاوت من فترة إلى أخرى. وقد تكلم في ذلك كبار العلماء المسلمين، مثل: الإمام محمد الغزالي في (إحياء علوم الدين)، وابن تيمية في (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) وابن خلدون في (المقدمة).

كلهم يرون أن أساس المشكلة في وضع أهداف عمل العلماء، واختيار الأساليب والطرق المناسبة لتحقيقها تناسب الزمان والمكان، فيصنف الغزالي - رحمه الله - العلماء على حسب أهداف أعمالهم على ثلاثة أصناف:

1 - الذين يهلكون أنفسهم ويهلكون غيرهم كذلك، وهم الذين لا يطلبون إلا الحياة الدنيا وملذاتها.

2 - الذين يسعدون أنفسهم وغيرهم كذلك، وهم الذين يدعون الخلق إلى عبادة الخالق في سرهم وعلنهم.

3 - الذين يهلكون أنفسهم ويسعدون غيرهم، وهم الذين يدعون إلى الآخرة، ولكنهم يعملون ذلك لكسب إعجاب الناس، وللمصالح الدنيوية من الجاه والمال وغيره.

ففكر في أي صنف أنت؟ ما الذي يشغلك؟ ولم أعددت نفسك؟ ولا تفكر أبدا أن الله سبحانه وتعالى يقبل شيئا من العلم والعمل إلا إذا كان خالصا لوجهه الكريم.

يقول ذلك، العالم المسلم الصوفي الزاهد الغزالي الذي عاش عصر الازدهار السياسي والاقتصادي والثقافي (القرن الخامس والسادس الهجري): فكان من الطبيعي أن علماء ذلك العصر أخذوا نصيبهم من تلك النعم، بل إن البعض منهم تجاوز الحد المشروع في ذلك على حساب الأهداف الروحية والأخلاقية.

ونتساءل الآن: هل يحدث مثل هذا معنا اليوم؟

فعلماء الإسلام الثلاثة جميعا، بعد أن درسوا أسباب الأزمة الروحية الموجودة في عصرهم، توصلوا إلى نتيجة واحدة، وهي: أن الخروج من ذلك الواقع يمكن تحقيقه في الأمور التالية:

أولا: نظرا لتمزق جهود العالم الإسلامي، وتشتت أهدافه في هذه الحياة، يجب على جميع المسؤولين - وفيهم العلماء - أن يرجعوا إلى وظيفتهم الأصلية وهدفهم الموحد، وهو حقيقة الرجوع إلى العمل من أجل إعلاء كلمة الله، (الحق والصلاح والعدل) في الأرض، فكلمة الله مقدمة على كلمة البشر وأفكارهم وأهدافهم، فمن المعروف أن الناس يتجمعون في سبيل تحقيق أهدافهم، ويبحثون عمن يساعدهم، فإذا كان هدف

العلماء الأساسي توحيد الله سبحانه وتعالى، فسيدعون أنفسهم وغيرهم إلى ذلك الهدف.

وأما تنسيق العمل مع ناس تختلف أهدافهم فأمر عسير، ولا يتوقع منهم نفع كبير للإسلام والأمة والإسلامية.

ثانيا: تقوية شعور المسلمين، وخاصة العلماء منهم، بوجوب أداء رسالة الإسلام في المجال الروحي والفكري، وصلاح البشرية عموما، واعتبار ذلك من الأمانة.

ويرى شيخ الإسلام (ابن تيمية) أن المسؤول الأول لهذه الأمانة هم الذين أسندت إليهم الإمامة على الناس في أي شكل من أشكالها، من تربية، وتعليم للناس، وتوجيه لهم، وهؤلاء هم العلماء المختصون في العلوم المختلفة.

وهذا الشعور والاعتقاد لابد أن يكون مبنيا على ثلاثة أمور:

أ ـ تقوى الله عز وجل.

ب ـ عدم الخوف من الناس.

ج ـ الاحترام البالغ لآيات الله وأحكامه، واجتناب التجارة الرخيصة فيها على ضوء قوله تعالى: ﴿**فلا تخشوا الناس واخشون، ولا تشتروا بآيتي ثمنا قليلا، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ المائدة: 44.

وبما أن الإنسان قاصر بطبعه، ونقائصه كثيرة، قد يصعب اختيار شخص متكامل يناسب المهمات الموكلة إليه، لذا يرشدنا القرآن والسنة إلى أن يكلف اثنان أو أكثر في مهمة واحدة، يتشاورون فيما بينهم، ويكمل بعضهم بعضا.

ورأينا في حياة الرسل، وخاصة رسولنا صلوات الله عليهم أجمعين، وفي حياة الصحابة من بعده، أن العمل الواحد يكلف به: الحليم والشديد والشجاع والعالم والزاهد والصابر والسريع والمجاهد في آن واحد، وكل يؤدي دوره في ظروف مناسبة.

وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل عند حلول الشهوات».

ثالثا: ويرى ابن خلدون أن الواجب الأول على العلماء تحليل حالة المجتمع الحالية من جميع جوانبها: الأسباب والنتائج، والعوامل الداخلية والخارجية، والواقع المادي والروحي، والتفاوت أو التناسق بينهما، ودور العقل إفراطا أو تفريطا، وإدراك القواعد الاجتماعية المعينة التي تضمن للمجتمع التقدم المستمر.

واستشهادنا بآراء العلماء الثلاثة المذكورين يرجع لسببين اثنين:

السبب الأول: نريد بهذا التنبيه على أهمية مواصلة الطريق في الفكر الإسلامي وعمل المسلمين عبر الأجيال، دون أن ننكر الفهم المعاصر، وإيجاد حلول لمشكلات المسلمين في مجتمع من المجتمعات الإسلامية.

والفكر الإسلامي القديم مهم جدا بالنسبة إلينا، لأنه أقرب للأصالة الإسلامية، والوعي الكامل عن المسؤولية لكل ما يعمله الإنسان، بخلاف بعض الحلول المطروحة اليوم، التي دخلت عليها أفكار غربية، وهي على حسب رأيي نتيجة للتفكير الذي لا علاقة له بالإسلام، كما أن المشاكل نفسها موضوعة على أسس بعيدة عن أسس المجتمع الإسلامي، ونتيجة التصورات الخاطئة عن الإنسان والكون والحياة التي تتعارض والتصور الإسلامي الحق. لذا أرى أن الاهتمام الزائد بالأوضاع غير الإسلامية ضياع للوقت، الذي يجب على العلماء أن يستغلوه في أمور المسلمين الحالية، وإيجاد الحلول المناسبة لمجتمعاتهم.

ولا أقول إن كل ما قيل من علمائنا القدامى صحيح ومناسب لظروفنا اليوم، وأن كل ما قاله الآخرون خطأ، ولا أقول إنه لا ينبغي أن يكون عدد من علمائنا يختص في أفكار وحلول المجتمعات غير الإسلامية اليوم، بل أرى أن ذلك مهم جدا، إلا أنه لا ينبغي أن يهتم بذلك كل علمائنا، وإنما أفراد منهم متخصصون في بعض الجوانب، حتى لا تؤدي دراسة الأمور الخارجة عن الإسلام إلى إهمال الفكر الإسلامي الأصيل. وهذه مع الأسف ظاهرة موجودة عند كثير من المثقفين المسلمين اليوم.

وإن كنا من المسلمين الأوروبيين، فلا أرى أننا نفقد شيئا من ذلك إذا كان تفكيرنا إسلاميا صحيحا، وأخلاقنا إسلامية أصيلة، فنرى أننا مع ديننا الحنيف وقرآننا نملك الحق الكامل في بقاء مجتمعنا متميزا عن غيره، دون أن ننكر ذلك الحق لغيرنا.

كذلك ونرى أن مهمة العلماء لا تنحصر في المحافظة على المجتمع المسلم في هذه المناطق، بل تتعدى إلى إيجاد وعي كامل عند المسلمين حول دور المسلمين في المجتمع عبر التاريخ، وعبر التفكير الإسلامي الصحيح، والأخلاق الإسلامية السليمة، مع إيجاد طرق مناسبة للاستفادة من المجتمع الأوروبي المحيط بهم ومعارفه المعاصرة.

السبب الثاني: ضرورة تقوية العلاقة الروحية والمادية بين الأقليات المسلمة، مثل مسلمي شرق أوروبا، والمراكز الإسلامية القوية، في سبيل تقوية شعور المسلمين بالوحدة الروحية، التي أمر بها القرآن والسنة، بغض النظر عن بعد المكان، والتقسيمات السياسية، ورد فعل الأعداء. فالمسلمون أمة واحدة كما ورد في الصحيفة المدنية التي كتبها الرسول ﷺ سنة 622م، فكان شعور الوحدة الفكرية

بارزا عند العلماء المسلمين بصورة خاصة طيلة التاريخ الإسلامي الطويل، نرى ذلك واضحا في المراجع، والمؤسسات الإسلامية، والعلماء الذين تعلموا في أي منطقة من المناطق الإسلامية، من المحيط الأطلسي إلى السور الصيني. ويجب الاستمرار في المحافظة على هذه العلاقات لأنها أساس الأمور الأخرى كلها.

وربما لا يذكرنا بأهمية الوحدة من الجانبين المذكورين الروحي والتاريخي ـ ونحن في غفلتنا هذه ـ إلا ضربات الأعداء المدروسة، التي تهدف إلى إضعافنا، وهدم الكيان الإسلامي في المنطقة، ومن ذلك محاولة إيجاد الفصل التام بين كل قديم عند المسلمين، والدعوة إلى كل جديد معاصر يتعارض مع القديم.

وخير دليل على ذلك، إلغاء الكتابة بالحروف العربية في كثير مناطق أوروبا والبلقان، وإبدالهما بالأحرف اللاتينية، حيث صار المسلمون عموما، وعلماؤهم خصوصا، ضعيفين في معرفة الإسلام، بل كانوا يمثلون الأمية في مجتمعهم، وحرمت الأجيال الجديدة من معرفة تراثها القديم، كما أبدلت اللغات الشرقية المشهورة ـ العربية والتركية والفارسية ـ باللغات الأوروبية.

ياله من تناقض عجيب! أولئك الأوروبيون، يحيون تراثهم وعاداتهم القديمة في كل مكان، يحاولون أن يكرهونا تراثنا وثقافتنا، وللأسف الشديد، نحن نساعدهم على ذاك في أحيان كثيرة.

نحن لا ندعي أن علماء الإسلام القدامى ينبغي أن يحلوا مشكلاتنا الحاضرة، لكن نقول إنه يجب علينا المحافظة على العلاقة القوية بين الفكر الإسلامي الأصيل وعملنا اليوم، فبسبب إهمالنا تعاليم الإسلام الصحيحة استطاع الأعداء أن يفرقوا بيننا، ويضعفوا علاقتنا، بجعل الحواجز السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية قائمة بيننا، فأصبح الكثير منا، وإن كان لا يحول بينه وبين أخيه غير جدار البيت أو الشارع أو النهر، كأن بيننا مسافة آلاف من الكيلومترات، وجهود العلماء في هذه الظروف ينبغي أن ترتكز على بيان وأهمية تلك الحواجز الاصطناعية بين المسلمين وإزالتها، وإدانة الذين يقيمونها بيننا، سواء على مستوى الفرد أو العائلة أو الجماعة أو المنطقة. فالأمور التي تجمع مسلمي أوروبا الشرقية والبلقان أكثر بكثير من الأمور التي تفرق بينهم، وهذا يساعد العلماء وغيرهم في مهمتهم.

فإذا كان هذا المؤتمر خطوة إيجابية في هذا المجال، ونرجو أنه كذلك، فيمكن أن نعتبره ناجحا.

سراييفو ـ يوغوسلافيا ـ نياز محمد شكريتج

كلكم علم

للشاعر العرائشي
محمد عفيف

رفرف بصحرائنا يا أيها العلم   قد باركت خفقك الأوطان والأمم
ته في فضائك منصورا ومنتصرا   لعزك الشعب مرصود ومنتظم
ردد نشيد العلى في الناس ملحمة   عشاقك الكثر دنيا شاقها النغم
ينسى الزمان ولا ينساك ممتطيا   زحف الأباة وأنت الحكم والحكم
كانت مسيرتك استئصال مزعمة   ما بات من بعدها زعم ولا وهم
أنت اللواء الذي أهدابه عظمت   شدت وشادت عرى تاريخها الهمم
دمت التراث الذي تزهو أصالته   شاب الزمان ولا قد سامك الهرم
لازلت في مجمع التاريخ صولته   أعطت مهابتك الأخلاق والشمم
من فيض وجداننا من نور أعيننا   صغناك رمزا سما في الأفق يبتسم
نهواك في فرحة الأطفال ممتزجا   نهواك في محفل يعلو بك الكلم
نهواك في السلم والأفراح دافقة   نهواك في الحرب والنيران تلتهم
نهواك في خشعة الإنسان أنسنة   نهواك في منتدى الإسلام تنتظم
ما راية شرفت أو جل موطنها   إلا التي في هدى التوحيد تلتحم
ما راية بلغت أسمى قداستها   إلا التي لثم الأشراف إذ لثموا
مذ رفرفت في حمى أملاكهم نشرت   أظلالها مثلهم وافترت النعم
فلترفلي في سماء العز ظافرة   يهنيك والحسن الثاني هو الدعم

مولاي في أرضك الأعلام قد كثرت   يعي بتعدادها ما استنسخ القلم
في البر في البحر في الأجواء مغرسها   تحني لرفعتها الأعراب والعجم
لو أنها لم تكن من عزم سددتكم   لقالت الناس من ذا فيكمو العلم
إذ كلكم علم في كفه علم   وكلكم شمم يسمو به الشمم
هذي مشاريعكم كالمعجزات أتت   تبدو خيالا يرقى لها حلم
فمسجد «الحسن الثاني» سما نسبا   فيه المفاخر والآيات تلتئم
قد جاء معلمة من وحي مبتكر   جاء امتثالا وما جاءت به أمم
يطفو على الموج في أمن ومؤتمن   «كفلك نوح» طفت والموج محتدم
بيت جذوره تحت الماء راسية   فيها المآذن لم تبلغ لها قمم
أعلاه من رد للصحراء عزتها   بمنطق السلم لا نار ولا حمم
هزت مسيرته الصحراء فاتحة   من بعد «فتوى» وعاها الجهل والصمم
أفتى «القضاء» وما أفتى بمعزلها   عن موطن الأهل من ساسوا ومن حكموا
كان الولاء وما زالت روابطه   وبيعة الحر فعل ناطق وفم
في النفس في القلب في الأعماق من قدم   صحراؤنا روحها روح لنا ودم
حب تفهمه «الإسبان» فانسحبوا   فكيف يطمع فيها بعدهم قزم ؟
زعانف طفقت ترتج لجلجة   شأن السراب الذي يبدو وينخرم
في كفها شرك تصطاد واهمة   أن الجواهر بالضوضاء تغتنم
فليأت من كان والطوفان في يده   نحن التحدي الذي تجثو له البهم
ما هم لو جاء «ذو القرنين» في لجب   أو جاء «أبرهة» و«الفيل» يعتزم
لن تبرح الأرض ما دامت عزيمتنا   من عزم مقتدر بالله يعتصم
قد أقسم الشعب إجماعا وعاهله   «أن لا تكون سوى بالعرش تلتئم»
الناس تدرك من شعبي ومن ملكي   إذ يقسمان وما أدراك ما القسم
فلتنعمي يا ربى الصحراء في نعم   ما قد رأى مثلها التكريم والكرم

مولاي هبت إليك العرب قاطبة   والمسلمون وقد حلت بهم إزم
ضاقوا وما وجدوا إلاك ملتجأ   والقدس من هجمة التهويد تنهدم
ألقوا إليك زمام القدس مأملهم   فخضت معترك الأهوال تبتسم
وسرت شهما وما ضلت بكم قدم   وصحت جهرا ولا ردت لكم كلم

لـولاك مـا محفـل في الغــرب نـاصرهـا   ولا وعــى صــوتها جمع ومنتظــم
فــأنـت مــن أسمـع الــدنيـا وأفهمهـا   فــاهتــزت النــاس والأوطــان والأمــم
يـرضيــك مـا منتــدى الا وتــذكــرهـا   أرضــا وشعبا كما بــالــذكر تلتــزم
مــولاي عيدك لــلأعياد جـوهـرهـا   تــأتي لطلعتــه الأنــوار تــزدحــم
مـن وهجـه اكتست الأفـلاك سنـدسهـا   فــالــورد والــزهــر والأنســام تلتحــم
والطير تشدو على الأغصــان صـادحـة   تهدي التبــاريك مــوصــولا بها النغــم
أنــس الـــرعيـة بـاد عـم منطقهـا   بــالحمد بــالشكر بالعرفــان يتسم
جـاءت أحـاسيسهـا رأيـا ومعتقـدا   شعــرا ونثــرا ولا في الحب تنقســم
فعيـد عــرشـك مـن أعماقنـا أرج   هــو الشعــار الــذي نهوى وينسجــم
فـاهنـأ بعيدك مـا هـب النسيـم على   أرض الجدود التــي بــالعــرش تنتظــم
واسعـد بشبليـك محبـوبين حفهما   مجد أصيــل وعــز دافــق عمــم

القصر الكبير - العرائشي عفيف محمد

تعقيب على مقال حول:

"الشروح الشعرية في الأدب المغربي"

بقلم الدكتور عبد الجواد السقاط

للأستاذ خالد الدادسي بن الحبيب
أستاذ الأدب المغربي والنقد الأدبي
بكلية اللغة العربية بمراكش

نشرت مجلة دعوة الحق في عددها 286 من سنة 1991 مقالا من ستة عشر صفحة للدكتور عبد الجواد السقاط، تناول فيه بالتقديم والتعريف بعض الشروح الشعرية في الأدب المغربي، فأضاف المؤلف بهذا الإنجاز العلمي لبنة جديدة في صرح التراث الأدبي والنقدي بالمغرب الأقصى، وهو مشروع ساهمنا في تدشينه برسالة جامعية تحت إشراف أستاذنا الجليل الدكتور عباس الجراري.

وهكذا استهل الباحث مقالته ببيان موقع الشروح من ميدان التأليف بالمغرب، وذكر مصادرها ومظانها وتحديد أنواعها، من دينية وعقلية ولسانية وأدبية، قبل أن ينتقل إلى تصنيف الشروح الشعرية - وهي صلب الدراسة - من خلال المستويات السبع الآتية وهي:

1 - القطر

2 - الشارح

3 - موضوع المتن

4 - حجم المتن

5 - نمط المتن

6 - الحواشي والمختصرات

7 - حجم الشرح. (وبه ختم المصنف بحثه).

من إيجابيات هذه المقالة أنها تعد عملا ببليوغرافيا هاما، كشف النقاب عن مؤلفات دفينة - جلها مخطوط أو في حكم

المفقود ـ وأسماء مغمورة، تنتظر من يزيح عنها غبار الإهمال، وينقذها من الضياع، بالتحقيق العلمي والدراسة الأكاديمية الجادة.

فشكرا للباحث أولا وأخيرا على التفاتته الكريمة، وهنيئا له ـ بهذا الجهد التوثيقي الرائد ـ على استمراره في تأصيل البحث، والتنقيب في الموروث الأدبي والنقدي بالمغرب، بصبر دائم، وكفاءة عالية، واستعداد كبير، كما تترجم ذلك بوضوح رسالتاه الجامعيتان، وتعبر عنه دراساته العديدة في الصحف والمجلات.

على أن هذا العمل لا يخلو من قصور معرفي، واضطراب منهجي، وقد ظهر لي أن أسد بعض النقص، وأقوم بعض الهفوات بإضافات وتصويبات حسب تسلسل صفحات المقال وتعاقب هوامشه.

وأول ما أبدأ التعقيب به، الإشارة إلى وجود نسخ أخرى من كتاب (فتح المغيث في شرح اليواقيت) أو (إكمال فتح المغيث)، للفلكي الموقت الحيسوبي المعدل أبي الحسن علي بن محمد بن أبي القاسم بن إبراهيم بن علي بن محمد الدادسي المتوفى عام 1094هـ ـ 1683م، وقفت عليها بنفسي ـ فضلا عن النسخة المشار إليها في الصفحة 42 الهامش 23 وهي متلاشية جدا ـ وهي على التوالي:

1 ـ م خ ع بالرباط رقم 302 ق، أول مجموع من ص 1 إلى ص 129.

2 ـ م خ ع بالرباط رقم 2174 د، خامس مجموع من ص 132 إلى ص 365.

3 ـ م خ كلية آداب الرباط رقم 125 مكل ـ ميكروفيلم.

4 ـ مخطوط بالجزائر رقم 1486.

وستكون لنا عودة إلى الشرح المذكور وإلى صاحبه في مناسبة قادمة بحول الله تعالى.

وورد في الصفحة 43 من المقال ذكر كتابي (أنوار التجلي) لعبيد الله الثعالبي، (والصنيع البديع) لمحمد بن زاكور، ضمن الشروح البلاغية، ولا أرى وجها لإقحامهما هناك، والصواب أن يدرجا في الشروح الشعرية، لأن بديعية صفي الدين الحلي هي ـ كما نعتها الباحث نفسه ـ قصيدة شعرية صيغت على فنون البديع وضروبه، وليست منظومة في علم البديع، ولو عاد المؤلف إلى كتابي الثعالبي وبن زاكور لألفاهما شرحين جامعين غير مقتصرين على مبحث البلاغة. وهذا الخطل المنهجي نجده مكررا في مواضع عدة من المقالة كما سنرى.

كما أن إحالة المؤلف ـ في الصفحة 44 الهامش 35 ـ على مخطوطة الخزانة العامة رقم 248 ك، من شرح رائية اليوسي في رثاء الزاوية الدلائية للدلائيين محمد البكري

محمد الشاذلي إحالة ناقصة، إذ تجدر الإشارة إلى وجود نسخة ثانية ضمن مجموع بالخزانة نفسها تحت رقم 2295 د.

وجاء في الصفحة السابقة (الهامش 38) قول الباحث في شرح محمد الهوزالي لديوان المتنبي «مخطوط خاص بفاس» وصوابه بسوس.

انظر (كتاب «سوس العالمة» لمحمد المختار السوسي ص 180).

وينبغي التنبيه في الهامش 39 من الصفحة نفسها إلى وجود نسخة أخرى من كتاب عنوان (النفاسة في شرح الحماسة) لأبي القاسم محمد بن زاكور الفاسي بمكتبة الزيتونة بتونس، والشرح مرقون بخزانة كلية الآداب بالرباط، بتحقيق الأستاذ مخلوف محمود عيسى، تحت إشراف الدكتور عزت حسن.

ولكتاب (نيل الأماني في شرح التهاني) للحسن اليوسي طبعات أخرى - عدا تلك التي ذكرها صاحب المقال في هامش 41 من الصفحة المذكورة آنفا - وهي:

- طبعة الكوكب الشرقي في الإسكندرية سنة 1291هـ.
- طبعة التقدم في القاهرة سنة 1329هـ
- المطبعة الميمنية سنة 1312هـ
- طبعة صبيح بمصر عام 1347هـ
- طبعة عبد السلام بن شقرون بمصر، بدون تاريخ.

وإذا انتقلنا إلى الصفحة 45، استوقفنا خطأ عند حديث المصنف عن شرح حمدون بن الحاج على معارضته لهمزية البوصيري، والتحقيق هو معارضته لبردة البوصيري، كما جاء في صفحة 53 من المقالة، ولعله سهو منه.

ويطالعنا في الصفحة السابقة ذكر كتاب (إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال) لواضعه العباس بن إبراهيم السملالي التعارجي ضمن الشروح الأدبية الصرفة، وهذا لا يستقيم، وحقه أن يدرج في عداد الشروح العلمية، لأن المتن المشروح أدخل في المنظومات التاريخية منه في القصائد الشعرية، والشرح - على عكس ما أشار إليه المؤلف في الهامش 45 - طبع طرف منه على الحجر بفاس سنة 1904م في مجلدين، وقع فيهما بعض خلل على حد قول بن سودة في (دليل مؤرخ المغرب الأقصى)ج 2 ص 417.

وخلافا لما أورده الباحث في الصفحة 45 دائما، فإن كتاب بن شهبون محمد التهامي بن محمد الشفشاوني - وهو من رجال القرن الثالث عشر الهجري - ليس شرحا لـ: (لامية العجم)، ولكنه مختصر لشرح الصفدي، وتوجد منه - إضافة إلى النسخة المذكورة في الهامش 46 - نسخة ثانية بنفس الخزانة رقمها 1688ك.

وما قلناه في كتاب (إظهار الكمال) نقوله كذلك في كتاب (المقاصد النامية) لواضعه عبد الرحمان المنجرة الصغير المذكور في الصفحة السابقة أيضا. ذلك أن دالية أبي عبد الله بن المبارك السجلماسي السرغيني ليست متنا شعريا، وإنما هي منظومة في القراءات القرآنية (التجويد) كما هو معلوم، ولها أكثر من شرح، أمثلة ذلك:

□ المقاصد العالية في شرح الدالية ـ إدريس المنجرة (توفي 1137هـ) ـ م خ الناصرية بتمكروت رقم 3102.

□ القطوف الدانية في شرح الدالية ـ محمد بن عبد السلام الفاسي (متأخر) ـ م خ زاوية تنغملت ببني ملال رقم 348 مجموع.

□ المقاصد النافية في شرح الدالية ـ عبد الرحمان بن إدريس الحني (متأخر) ـ م خ زاوية تنغملت ببني ملال رقم 560 مجموع.

□ المقاصد النامية في شرح الدالية ـ عبد الواحد الحسني ـ م خ ع بتطوان رقم 503.

وعليه، فينبغي أن يدرج شرحها في إطار الشروح على المتون العلمية، فلو أن الباحث تجشم مشقة الوقوف على الشروح نفسها لتجنب الوقوع في هذه المزالق.

وندع الصفحة 45 لننتقل بالقارئ إلى الهامش 51 من الصفحة 46، حيث نلاحظ نقصا في إحالة المؤلف على نسخ من شرح سعيد بن سليمان السملالي الكرامي على بردة البوصيري وهي:

* م خ الناصرية بتمكروت رقم 1804.

* م خ زاوية تنغملت ببني ملال رقم 56.

* م خ ابن يوسف بمراكش رقم 347 ضمن مجموع.

وإذا كانت إشارة الباحث في الهامش 55 من الصفحة المذكورة إلى كتاب الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه توحي إلينا أن (كتاب الجواهر السنية في شرح الكواكب الدرية) لأحمد بن عبد الوهاب الغساني الوزير مفقود، فإن الواقع غير ذلك، فالشرح موجود، وله نسخ عديدة، وهي:

* م خ ح رقم 866 ز بخط المؤلف.

* م خ ح رقم 11758 ز.

* م خ ع رقم 1080 ك ضمن مجموع.

وأسأل الباحث ـ قبل أن أعرج على الصفحة 47 ـ بأي حق حشرت محمد ابن مرزوق في عداد الشراح المغاربة وهو تلمساني المولد والنشأة والإقامة والوفاة؟ (انظر ترجمته في نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا السوداني).

ولست أدري بأي معيار ألغى المؤلف ـ كما سبق ـ ما هو موجود، وأثبت في الهامش 62 من الصفحة 47 ما هو معدوم،

فلا يعرف لأحمد الصومعي شرح على الهمزية، وإنما يعرف له شرح على الشريشية، وقد ذكره المقري في روضته ص 301، والقادري في نشره ج 1 ص 115، وكنون في نبوغه ج1 ص 267، وبن إبراهيم في إعلامه ج 2 ص 279، والجاوي في مقدمة تحقيق (المعزى في أخبار أبي يعزى) لأحمد الصومعي، .. وأما النسخ المشار إليها فهي لمحمد بن عبد الرحمان الصومعي ـ كما سيأتي ـ مع خطأ في الترقيم، وتصويبه هكذا 2166. ولعل مصدر الهفوة كتاب (الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين) لمحمد حجي.

كما توجد نسخ أخرى مخطوطة من شرح محمد بن زكري على معارضته لهمزية البوصيري ـ زيادة على النسخة التي ذكرها الدارس في الهامش 63 من الصفحة الماضية ـ وليس للهمزية ذاتها كما جاء في المقال، وهي على التوالي:

- بالخزانة العامة بالرباط: أرقام 1245 ك ـ 1799 د ـ 3834 د ـ 410د.
- بالخزانة الحسنية: رقم 797 ز

نفس الملاحظة تسري على شرح محمد بن عبد الرحمان الصومعي الزمراني لأم القرى (الهمزية)، فبالإضافة إلى المخطوطة المشار إليها في الهامش 64 من الصفحة نفسها هناك عدة نسخ أخرى، وهي: م خ ع رقم 895 ج - م خ ح رقم 11497 ز ورقم 2166.

ولنتوقف عند الصفحة 48، لنشير إلى ورود خطأ في ضبط عصر محمد بن علي اليعقوبي، والصواب هو القرن الثالث عشر كما ورد في المرجع المذكور، أي (سوس العالمة) ص 198.

كما نود أن ننبه إلى أن نمط متن (المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية) لابن البناء السرقسطي ليس قصيدة شعرية، ولكنه أرجوزة في علم التصوف والسلوك، ومن ثم فلا يمكن اعتبار شروحها شروحا أدبية بالمعنى الخاص للأدب.

واكتفى المؤلف في الهامش91 من الصفحة 49 بذكر موضع شرح عبد الواحد الحسني لمقصورة عبد الرحمان المكودي دون أن يشير إلى رقمه بخزانة الإسكوريال بمدريد وهو 32، ونحتفظ في خزانتنا بصوره منه على الميكروفيلم، وللشرح نسخة ثانية بدار الكتب الوطنية بتونس العاصمة.

أما اسم الديوان الذي وضع حمدون بن الحاج عليه شرحه المذكور في الصفحة 50 فهو: (النوافح الغالية في المدائح السليمانية)، وهو مرقون بتحقيق الأستاذ

أحمد العراقي، ومحفوظ بخزانة كلية آداب فاس.

ووقع في الهامش 96 من الصفحة السابقة اضطراب في ترقيم مخطوطات كتاب (كشف الأستار الغيبية عن وجه القصيدة الشعيبية) لمحمد بن عبد الله الهبطي الصغير، وتصويبه هكذا: م خ ح رقم 6120 ورقم 9289 - م خ القرويين بفاس رقم 1528/1، كما توجد نسخة أخرى ضمن مجموع في ملك العلامة محمد المنوني، نحتفظ بصورة منها.

وفات الباحث أن يشير في الهامش 99 من الصفحة نفسها إلى أن كتاب (إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب) لسعيد بن مسعود الماغوسي مرقون بكلية الرباط تحت رقم 8111 مؤدب، بتحقيق الأستاذ محمد الأمين مؤدب، تحت إشراف الدكتور عزت حسن.

كما نسي أن يذكر في الصفحة 51 بعنوان (شرح لامية العجم) للماغوسي المتقدم المسمى (إيضاح المبهم من لامية العجم)، وأن ينبه في هامشها 100 إلى وجود نسختين خطيتين منه، إحداهما: بالخزانة الحسنية رقمها 11435 ز، وهي التي نملك صورة منها، وثانيتهما: بالخزانة الناصرية رقم 3266.

وجاء اسم أحمد بن الحسن الحاقي كذا في الصفحة المذكورة، ولعله خطأ مطبعي، والصحيح الحاحي من حاحة، كما في كتاب (الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين) للدكتور محمد حجي.

وفي الهامش 105 نقص، وتكملته وجود نسخة ثانية من كتاب (تفريج الكرب) لابن زاكور، مصورة على الميكروفيلم بالخزانة العامة تحت رقم 2136، وأخرى مخطوطة بتونس. والشرح منشور - كما هو معلوم - ضمن أربعة شروح وهي:

□ أعجب العجب في شروح لامية العرب: للزمخشري.

□ إعراب لامية العرب: للعكبري.

□ شرح لامية العرب: للمبرد.

□ وشرح عطاء الله المصري بدار الحديث بمصر سنة1979 ، من جمع وتحقيق محمد عبد الحكيم القاضي، ومحمد عبد الرزاق عرفان، كما نشرت مستقلة محققا بعضها.

وورد في الصفحة نفسها (حديث الدارس عن شرح دالية اليوسي) لمحمد بن المهدي بن سودة، وهذا وهم، والتقدير هو (شرح رائية اليوسي في رثاء الزاوية الدلائية). وقد تكرر نفس الخطأ في ص 53.

هذا، وأغفل المؤلف أن يشير في الهامش 107 إلى وجود الشرح في ستة أسفار ضخام عند أولاد الشارح - على حد قول بن سودة نفسه في دليله -، كما توجد

نسخة خاصة منه بمراكش في سفرين ذكرها المنوني في ج 2 ص 256 من مصادره العربية.

وتحدث الباحث في نفس الصفحة دائما عن كتاب (فتح المنان) للعربي بن علي المشرفي الحسني - وليس المشرقي كما جاء في المقال، ولعله غلط مطبعي - نقلا عن كتاب الإعلام لابن إبراهيم، دون أن ينبه كعادته إلى وجود نسختين خطيتين منه، وهما: م خ ع رقم 629 ج في مجلد من حجم طويل - م خ ح رقم 12427 في سفرين من حجم متوسط.

ونقرأ في الهامش 111 من الصفحة 52 تعليق المؤلف على شرح (لامية العرب) لأبي بكر بن العربي بناني الفاسي «مخطوط بالخزانة الصبيحية بسلا» وهذا خطأ، وتحقيقه هو الخزانة الحسنية بالرباط، ورقمه 206 ضمن مجموع من ص 198 إلى ص 272.

ولما كان موضوع المقالة هو التعريف بالشروح الشعرية في الأدب المغربي، فما الداعي إذن إلى حشر كتب الحواشي والترتيبات فيها؟! علاوة على أن الباحث لم يشر في الهامش 116 من الصفحة السابقة إلى نسخة الخزانة العامة بتطوان تحت رقم 524، من ترتيب (ديوان المتنبي) لعبد العزيز الفشتالي.

وأتجاوز الصفحة 52 إلى الهامش 117 مكرر من الصفحة 53 لأحيل على مخطوطتين إضافيتين من مختصر شرح إسماعيل بن الأحمر لبردة البوصيري إحداهما: بخزانة القرويين بفاس رقمها 643، وثانيتهما: بخزانة بن يوسف بمراكش رقمها 368 ضمن مجموع.

كما يجدر التذكير بأن شرح معارضة بردة البوصيري لحمدون بن الحاج المذكور في الصفحة السابقة قد طبع جزءه الأول على الحجر، وأن بقية الأجزاء لازالت مخطوطة.

وأختم بالتدليل على مكان نسختين من: (شرح رائية اليوسي للدلائيين) محمد بن أحمد الشاذلي ومحمد البكري الموما إليه في الهامش 122 من الصفحة الأخيرة، وتعيين رقمهما وبيانهما: م خ ع رقم 248 ك - م خ ع 2295 د في مجموع.

فالمرجو أخيرا من الباحث، إعادة النظر في تصنيف الشروح وتبويبها، وضرورة الوقوف عليها عن قرب، أو البحث عنها على الأقل - في فهارس وجذاذات الخزانات - بدل النقل - السقيم أحيانا - عن بعض المصادر والمراجع، كما ينبغي وصف نسخ الشروح: من حيث حجمها، وعدد صفحاتها، وعدد أسطر الصفحة، وخطها، وذكر ناسخها وتاريخ نسخها وناشرها ومحققها، والتعريف بمحتوياتها

ومناهجها، ودواعي تأليفها، والدراسات المنجزة حولها ـ مثلما هو الشأن عند المؤرخ عبد السلام بن سودة المري في دليله، والعلامة محمد المنوني في مصادره ـ، وكذا التمييز بين القصيدة والأرجوزة، أي بين الشعر والنظم، وتوثيق وفيات بعض الأعلام.

وكان على المؤلف أن يصدر مقاله بكلمة وجيزة عن نشأة الشروح الأدبية بالمغرب وتطورها، عن أصولها وروافدها، عن خصائصها ومقاصدها، وعن أنواعها واتجاهاتها...

وبعد، فإن هذه الملاحظات المعرفية والمنهجية لا تقلل من مجهود المؤلف، ولا تنقص من قيمة عمله، وإنما هي تقويم وتكملة للمقال، وعلى الله القصد، وهو يهدي السبيل.

مكناس ـ خالد الدادسي بن الحبيب



من نشاط

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الكتب والمطبوعات

الصادرة عن الوزارة

في مطلع شهر رمضان الأبرك لعام 1412هـ

الكتب والمطبوعات
الصادرة عن الوزارة
في مطلع شهر رمضان الأبرك لعام 1412هـ

1 ـ الدروس الحسنية لعام 1411هـ مسجلة على أشرطة الفيديو.

2 ـ الدروس الحسنية لنفس العام باللغة العربية، وترجمتها إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية.

3 ـ مناقشاتها باللغة العربية.

4 ـ الجزآن: الخامس والعشرون والسادس والعشرون الخاصان بالفهارس العامة لكتاب التمهيد.

5 ـ الجزآن: الأول والثاني من «النوازل الصغرى» للفقيه الشيخ المهدي الوزاني.

6 ـ «شرح الفقيه الرصاع على حدود الفقيه ابن عرفة التونسي في تعاريف الأبواب الفقهية».

7 ـ «رسالة القضاء» لأمير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، توثيق وتحقيق ودراسة: للأستاذ أحمد سحنون (أطروحة جامعية من دار الحديث الحسنية).

8 ـ «صحيفتا عمر بن شعيب وبهز بن حكيم عند المحدثين والفقهاء»، دراسة وتحقيق: للأستاذ محمد علي بن الصديق. (رسالة جامعية من كلية الآداب).

9 ـ «الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية»، للشيخ محمد المكي الناصري.

10 ـ «التقريب بين الفرق الإسلامية»، درس حسني للأستاذ عبد الكبير العلوي المدغري، باللغة العربية وترجمته إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية.

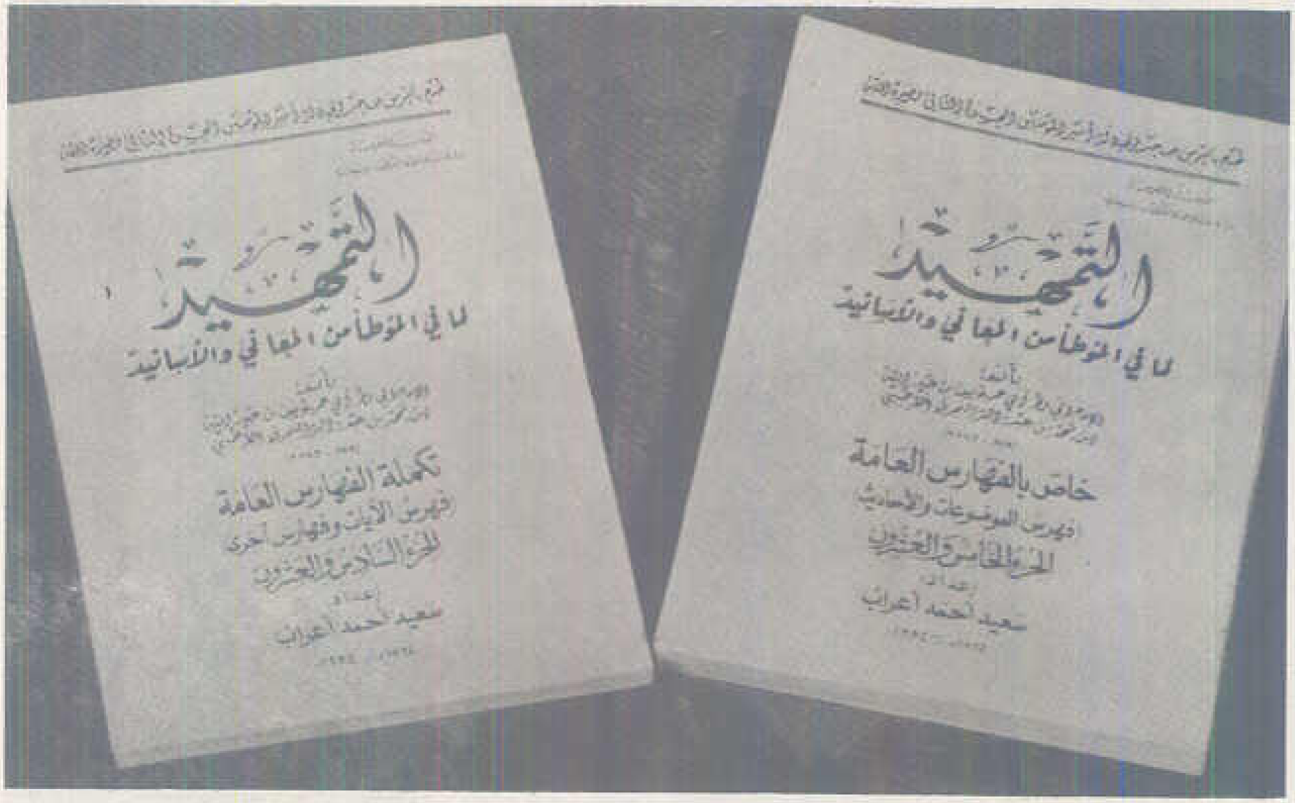
11 ـ كتاب أشغال ندوة الجامعة الصيفية للصحوة الإسلامية في دورتها الأولى حول موضوع: «الصحوة الإسلامية واقع وآفاق».

12 ـ التقويم السنوي الهجري لعام 1412هـ.



مطبوعات الدروس الحسنية التي ألقيت بحضرة أمير المومنين
جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده في رمضان لعام 1411هـ وهي باللغات :





الكتب والمطبوعات الصادرة عن الوزارة





الكتب والمطبوعات الصادرة عن الوزارة





التقويم الهجري المغربي لعام 1412 هـ



فهرس العدد 289
من مجلة دعوة الحق

• من نشاط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية •

التحرير:

الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها :
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الإيداع القانوني 1981/3

ثمن العدد : 4 دراهم

بسم الله الرحمن الرحيم

قد نرى تقلب وجهك في السماء
فلنولينك قبلة ترضاها
فول وجهك شطر المسجد الحرام
وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره

صدق الله العظيم



البيت العتيق بالمسجد الحرام بمكة المكرمة
مهبط الوحي الإلهي، وموطن الرسالة الخالدة
لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومهوى أفئدة المسلمين
في مشارق الأرض ومغاربها.

ثمن العدد :
4,55 دراهم